سلسلة قصصية

ألجيرنون بلاكـــوود

ترجمة: جورج نبيل

تحريـر: رفعت فرج

جون سايلنس في قضية

أسحـــار قديمـــة

case 11



مكتبة ٩٨٦

أسحار قديمة

ألجيرنين بلاكوود

Author: Algernon Blackwood,

John Silence Case II: Ancient Sorceries

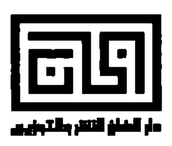
Translated from English by:	ترجمها عن اللُّغة الإنجليزية:
George Nabeel	**جورج نبيل**
Edited by:	تحرير:
Refaat Faraj	**رفعت فرج**
Design by:	الإخراج الفني:
Digitalized Kuwait	**ديجيتليزد كويت**

الطبعة الأولى | سبتمبر 2020

ISBN: 978-9921-712-30-8

رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية - دولة الكويت:

2020/0885



+965 99462219 / +965 51088000

@DarAlkhan_kw Info@daralkhan.com



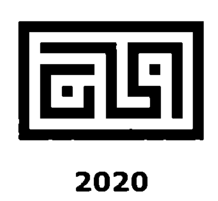
مكتبة | سُر مَن قرأ | 986

جون سايلنس
في قضية

أسحار قديمة

ألجيرنين بلاكوود

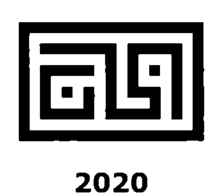
ترجمة
جورج نبيل



2020

Algernon Blackwood

John Silence Case II: Ancient Sorceries



2020



1

يبدو أنّ هناك أشخاصًا عاديين تمامًا، لا يتمتّعون بأيّ من الخصائص التي تدعو إلى المغامرة، يتعرّضون مرة واحدة أو مرتين خلال حياتهم السلسة لتجربة غريبة يكتم فيها العالم أنفاسه ويتطلّع إليهم! وربّما كانت الحالات التي من هذا النوع، أكثر من أيّ حالة أخرى، هي تلك التي وقعت في الشبكة الواسعة الانتشار لجون سايلنس، الطبيب النفسي، مناشدة إنسانيته العميقة وصبره وخصائصه الروحية العظيمة للتعاطف، وأدّى هذا في كثير من الأحيان إلى الكشف عن مشكلات في غاية التعقيد، وأدّت أيضًا إلى إثارة اهتمام البشر إلى أقصى درجة ممكنة.

لقد شغف بتتبّع مصادر المسائل الخفية التي بدت في الغالب غريبة تمامًا وخيالية جدًّا كي يؤمن بها أحد. كان لديه شغفٌ حقيقيٌّ لفكّ ألغاز تشابك جوهر الأشياء وتحرير معاناة النفس البشرية في هذه العملية. وفي الواقع فإنّ العُقد التي قام بحلّها كانت غريبة.

يطلب العالم بطبيعة الحال أساسًا معقولًا يمكن أن يعلّق عليه

المصداقية، على الأقلّ شيء من الممكن ادّعاء تفسيره. يمكن فهم النوع المغامر، فهؤلاء الأشخاص يحملون معهم شرحًا مناسبًا لحياتهم المثيرة، ومن الواضح أنّ شخصيّاتهم تدفعهم إلى الظروف التي تُنتج المغامرات. لا يمكن أن نتوقّع منهم شيئًا آخر بخلاف ذلك، وهذا يرضينا. لكن القوم الأغبياء العاديين ليس لهم الحقّ في الحصول على خبرات غير مألوفة، ومن انتظر منهم شيئًا آخر شعر بخيبة أمل -لن نقول بالصدمة- لأنّه كان يتوقّع عكس ذلك. لقد تشوَّش حكم العالم اللطيف بدرجة فظّة.

لقد صرخ العالم: «أحدث مثل هذا الشيء لهذا الرجل! لشخص عادي كهذا! يا لَه من أمر غريب للغاية! لا بدَّ وأنّ ثمّة أمرًا ما خاطئًا!».

ومع ذلك، لا يمكن أن يكون هناك شكّ في أنّ شيئًا ما قد حدث بالفعل للصغير أرثر فيزين، وهو شيءٌ ذو طبيعة غريبة مثل التي وصفها للدكتور سايلنس. لقد حدث هذا دون أدنى شكّ ظاهريًّا أو داخليًّا، وعلى سخرية أصدقائه القلائل الذين سمعوا الحكاية، ولاحظوا بحكمة أنّه «ربّما أصاب إسزارد شيءٌ من هذا القبيل؛ إسزارد المخبول أو ذلك الغريب مينسكي، ولكن لم يكن من الممكن أن يكون قد حدث ذلك مع الضئيل فيزين

وهو شخص عادي، كان من المحتم أن يعيش ويموت وفقًا للمعايير المتعارف عليها».

ولكن مهما كانت طريقة موت فيزين، فإنّه بالتأكيد لم يكن «يعيش وَفقًا للمعايير المتعارف عليها» فيما يتعلّق بهذا الحدث بالذات في حياته الهادئة. وعندما تسمع روايته وتشاهد تغيُّرَ ملامحِه الدقيقة الشاحبة، وتسمع صوتَه يزداد ليونة وخمولًا مع تقدُّمه في الحديث، كان ذلك يزيدك إقناعًا بأنّ الكلمات المتلعثمة ربّما تفشل أحيانًا في التعبير عن الحالة. لقد عاش ما مرّ به في كلّ مرة تحدّث عن الأمر. لقد أصبحت شخصيّتُه كلُّها مكبوتة أثناء تلاوته القصة. لقد قهرته أكثر من أيّ وقتٍ مضى، حتى أصبحت الحكاية اعتذارًا مطوّلًا عن تجربة قد استنكرها. وبدا أنّه يلتمس العذر نفسه ويلتمس عفوك لأنه تجرّأ على مشاركتك في واقعةٍ خيالية للغاية. لقد كان فيزين الضئيل خجولًا ولطيفًا ذا نفس حسّاسة ونادرًا ما كان قادرًا على فرض نفسه على الآخرين، وكان رقيقًا مع الإنسان والحيوان، وغالبًا ما كان غير قادر على قول «لا» بشكل فطري، أو المطالبة بأشياء كثيرة كان من المفترض أن تكون له حقًّا. لقد بدا مخطّطُ حياته كلّه بعيدًا تمامًا عن أيّ شيء أكثر إثارة من فقدان موعد القطار أو فقدان مظلّة في الأتوبيس العام. وعندما وقع له هذا الحدث

الغريب، كان قد تجاوز الأربعين عامًا بالفعل، وذلك هو ما لم يتوقّعه أصدقاؤه ولم يهتمّ هو بالتأكيد به.

قال جون سايلنس، الذي سمعه يتحدّث عن تجربته أكثر من مرة، إنّه أهمل في بعض الأحيان تفاصيل معيّنة وركّز على أخرى، ومع ذلك فمن الواضح أنّها كانت كلّها صحيحة. ظلّ المشهدُ كلُّه عالقًا بذهنه كمشهد سينمائي لا يمكن نسيانُه. لم يكن ممكنًا أن يتخيّل أو يخترعَ أيًّا من هذه التفاصيل. عندما روى القصّة كاملة لهم، كان هناك تأثير لا يمكن إنكارُه. أشرقت عيناه الجذابتان البُنّيتان وبدأت ملامح شخصيته الجذّابة -التي عادة ما كان يتمّ كبتُها بحرصٍ- تظهر وتبوح عن نفسها. كان دائم الحياء بالطبع، ولكن في سرده نسي الحضور وسمح لنفسه بالظهور بشكل أكثر حيوية كما لو أنّه عاش مرة أخرى في الماضي من مغامرته.

كان في طريقه إلى الوطن عندما حدث ذلك؛ حيث عبر شمال فرنسا بعد رحلة جبلية ما أو ما شابه، حيث كان يستمتع بالاستحمام الشمسي في كلّ صيف. لم تكن لديه سوى حقيبة يد على المحفّة، وكان القطار مكتظًّا للغاية. لقد نفر منهم، ليس لأنّهم كانوا قرويّين، ولكن لأنهم كانوا مزعجين وفضوليين،

يطمسون بأطرافهم الكبيرة وملابسهم الصوفية الخشنة كل آثار اليوم الهادئة التي جلبت له الرضا ومكَّنته من الذوبان في كلّ ما هو عديم الأهمية ونسيان أنّه كان شخصًا. لقد تزاحم هؤلاء الإنجليز من حوله مثل فرقة آلات نحاسية، ممّا جعله يشعرُ شعورًا غامضًا أنّ عليه أن يكون أكثر ثقةً في نفسه وأكثر مشاكسة، وأنّه لم يطلب بإصرار كافٍ كلَّ أنواع الأشياء التي لم يكن يريدُها حقًّا وكانت بلا قيمة، مثل المقاعد الجانبية وفتح النوافذ وغلقها... إلخ.

ولهذا فَقَد شعر بعدم ارتياح في القطار، وتمنّى أن تنتهيَ الرحلة ويعودَ مرة أخرى للعيش مع أخته غير المتزوّجة في سوربيتون.

عندما توقف القطار مدة عشر دقائق في محطّة صغيرة في شمال فرنسا، وخرج يبسط ساقيه على رصيف المحطّة، رأى فزعًا مجموعة أخرى، قادمين من الجزر البريطانية يخرجون من قطار آخر، بدا له فجأة أن من المستحيل أن يواصل الرحلة، فثارت نفسُه الرخوة وقد ومضت في عقله فكرةُ البقاء لليلة في البلدة الصغيرة، والذهاب في اليوم اللاحق بوساطة قطار أبطأ وأكثر فراغًا. كان الحارس يصرخ بالفعل «إلى العربة» وكانت

عربته في القطار قد اكتظّت بالفعل بالركاب عندما راودته تلك الفكرة. في تلك المرة فقط اتخذ قرارَه واندفع منتزعًا حقيبتَه.

عندما وجد أنه لا يستطيع عبور الطرقة أو درجات السلم، نقر على النافذة، لأنّه كان يشغل مقعدًا في الركن، وتوسّل إلى الفرنسي الذي جلس مقابله أن يسلّمه أمتعته من النافذة، موضّحًا بلغته الفرنسية الركيكة أنه يعتزم إنهاء الرحلة. رماه هذا الفرنسي المسنّ بنظرة تحذير ولوم لن ينساها أبدًا حتى يوم وفاته، وأعطاه الحقيبة عبر نافذة القطار المتحرّك، وفي الوقت نفسه فقد صبَّ في أذنيه جملة طويلة. كان يتحدّث سريعًا وبصوت خفيض فلم يتمكّن من فهم شيء سوى الكلمات القليلة الأخيرة: «بسبب النوم وبسبب القطط».

اعترف فيزين بأن الرجل قد ترك في نفسه انطباعًا إيجابيًا منذ البداية، مع أنّه لم يتمكّن من شرح السبب وهذا ردًّا على د. سايلنس، الذي استغلّ براعته النفسية في الحال وتنبّه لهذا الرجل الفرنسي كنقطة حيوية في المغامرة. لقد جلسا في مواجهة بعضهما بعضًا أثناء الساعات الأربع التي استغرقتها الرحلة. كان فيزين خجلًا من فرنسيّته المتلعثمة، ومع عدم وقوع محادثة بينهما، فقد اعترف بأنّ عينيه كانتا تنجذبان

باستمرار إلى وجهه، وغالب الأمر أنّه قد شعر بوقاحة جرّاء هذا السلوك غيرِ المهذّب والانتباه الذي لا نستطيع تسميته، وبرهن على رغبته في أن يكون لطيفًا. لقد أحبّ الرجلان بعضهما بعضًا ولم تصطدم شخصياتهما، أو أنّ الفرصة لم تسنح للمعرفة الشخصية كي يحدث ذلك. في الواقع، بدا أنّ الفرنسي قد مارس تأثيرًا وقائيًا صامتًا في الرجل الإنجليزي الضئيل الضئيل ودون كلمات أو إيماءات تفصح عن أنّه تمنّى له التوفيق، وكان من دواعي سروره أن يكون في خدمته.

سأله جون سايلنس، وهو يبتسم تلك الابتسامة المتعاطفة الخاصّة التي تذيب دائمًا إجحاف مريضه: «ماذا عن تلك الجملة التي ألقاها عليك بعد أمر الحقيبة؟ هل كنت غير قادر على فهمها بالضبط؟».

أوضح فيزين بصوته الخفيض: «لقد قالها سريعًا جدًّا وبصوت خفيض حادّ حتّى إنّني لم أستوعبها. لقد فهمت الكلمات القليلة التي في نهاية حديثه لأنه قالها بوضوح جدًّا وقد أخرج وجهه من نافذة عربة القطار بالقرب من وجهي».

كرَّر د.سايلنس العبارة كما لو كان يتحدّث إلى نفسه بشكل جزئي: «بسبب النوم وبسبب القطط؟».

أجاب فيزين: «نعم، بالضبط. هذا هو ما تمكّنت من فهمه؛ شيء ما يعني هذا: «بسبب النوم وبسبب القطط» أليس كذلك؟».

أفاد الطبيب باقتضاب: «بالتأكيد، تلك هي الطريقة التي يجب أن أترجم بها هذه الجملة»، ومن الواضح أنه كان لا يرغب في أن يقاطعه أكثر من هذا.

قال فيزين: «وبقية الجملة كانت تحذيرًا بعدم القيام بشيء ما وألا أتوقف في البلدة، حيث إن الجزء الأول لم أستطع فهمه كلّه، أو ربّما في مكان معيّن فيها. هذا هو الانطباع الذي تركته الجملة في نفسي».

بعد ذلك بالطبع اندفع القطار وترك فيزين يقف على رصيف المحطّة وحيدًا، بل بالأحرى بائسًا. ترتفع البلدة الصغيرة متشابكة أعلى تلّ حادّ يبدأ من السهل من مؤخّرة المحطّة وهي متوّجة بالبرجين التوأمين للكاتدرائية المحطّمة على قمّتها. تبدو من المحطّة غير لطيفة، ذات طراز حديث، لكن الحقيقة كانت أن حالة العصور الوسطى تكمن خلف القمّة. بمجرد وصوله إلى القمة ودخوله إلى الشوارع القديمة، ابتعد عن الحياة العصرية لقرن مضى. بدا ضجيج وصخب القطار المزدحم بعيدًا جدًّا. لقد نهضت روح هذه البلدة الصامتة

-بعيدًا عن السياح والسيارات، والتي تحلم بحياتها الهادئة تحت شمس الخريف- وألقت بسحرها عليه. قبل أن يدرك هذا السحر بوقت طويل، فقد أحدث أثرًا في نفسه... تمشى بهدوءٍ -على أطراف أصابعه- في الشوارع الضيقة المتعرجة حيث كانت الجملونات فوق رأسه، ودخل إلى مدخل النزل المهجور بسلوك مستنكر خجول، وكان هذا في حدّ ذاته بمثابة اعتذار عن التطفّل على المكان وتكدير فتنته.

قال فيزين إنه لاحظ القليل جدًّا من كلّ هذا في البداية. جاءت محاولة التحليل لاحقًا. ما أدهشه حينها، كان التناقض البهيج للصمت والأمان بعد الغبار والخشخشة الصاخبة للقطار. كان يشعر بالهدوء والسكينة مثل قط.

قاطعه جون سايلنس سريعًا: «هل قلت، مثل قط؟».

ضحك معتذرًا وقال: «نعم، شعرت بهذا في البداية. شعرت كما لو أن الدفء والهدوء والراحة جعلوني أخرخر. بدا لي أن ذلك هو الطابع العام للمكان كله».

على ما يبدو أنّ النزل القديم، ذلك المنزل المتهالك لم يرحب به بحرارة. لم تزل ذكرى هذه الأيام القديمة حاضرة فيه. لقد شعر بأنه لم يكن مرحبًا به كثيرًا فيه. لكنه كان رخيصًا

ومريحًا، وقد جعله فنجان شاي ما بعد الظهيرة، الذي طلبه في الحال، يشعر حقًّا بالراحة مع نفسه حقًّا لمغادرته القطار بهذه الطريقة الجريئة. بالنسبة له بدا ما فعله جريئًا وغريبًا. شعر بشيء ما؛ ربما كلب. بثّت غرفته أيضًا السكينة في نفسه انطلاقا من ألواحها الخشبية الداكنة وسقفها المنخفض غير المنتظم، وبدا أنّ الممرّ المنحدر الطويل الذي أدّى إلى الغرفة هو الطريق الطبيعي إلى قاعة النوم الفعلية. إنّها غرفة صغيرة مظلمة قاتمة بعيدة عن العالم حيث لا يمكن أن تتخلّلها الضوضاء. كانت الغرفة تطلّ على الفناء الخلفي. كان كلّ شيء ساحرًا للغاية، وجعله يتخيّل أنه يرتدي ملابسَ مخملية ناعمة جدًّا بطريقة ما، وبدت الأرضيّات مبطّنة، والجدران مزوّدة بوسائد. لم تتمكّن الأصوات الآتية من الشوارع أن تخترقها. كان هناك جوٌّ من الراحة التامّة يحيط به.

عندما استأجر غرفته الصغيرة، أجرى مقابلة مع الشخص الوحيد الذي بدا أنه موجودٌ في ظهيرة ذلك اليوم الناعس؛ إنه نادل عجوز يلوح عليه الاحترام والهدوء، لديه شارب من طراز دندراري وكان يتجه نحوه بفتور عبر الفناء الحجري، ولكن عند هبوطه إلى الطابق السفلي مرة أخرى لأجل نزهة صغيرة في البلدة قبل العشاء، التقى المالكة نفسها. كانت امرأةً ضخمةً

بدت يداها وقدماها وملامحها وكأنّها تسبح ناحيته خارجة من أحد البحار. لقد ظهرت اليدان والقدمان والملامح فجأة، إن جاز التعبير. كانت لديها عينان كبيرتان مظلمتان مفعمتان بالحيوية تشغلُ الجزءَ الأكبرَ من جسدها، وقد كشف ذلك حقيقة أنّها في الواقع كانت في حالة من الحيوية والتنبه. عندما رآها أول مرة، كانت تحيك على كرسي منخفض قبالة أشعة الشمس على الجدار، وقد كان هناك شيء ما جعله يراها في الحال كقطة كبيرة تغفو ولكنّها لا تزال مستيقظة، تشعر بالنعاس الشديد ومع ذلك فإنها في الوقت نفسه كانت مستعدّة للعمل الفوريّ. لقد خطر في باله أنّها آكلة فئران كبيرة في وضع يقظ.

شملته بنظرة واحدة مهذّبة دون أن تكون ودودة. لاحظ أنّ عنقها كان مرنًا بشكل استثنائيّ على حجمه؛ لأنّها التفتت بسهولة لتتبعه، وانحنت الرأس التي كانت تحملها بمرونة للغاية.

قال فيزين مع تلك الابتسامة الصغيرة المعتذرة في عينيه البُنّيتين وإيماءة الاستنكار الضعيفة للكتفَين التي كانت تميزه: «أتعرف؛ عندما نظرت إليَّ جاءتني الفكرة الغريبة بأنّها قد انتوت القيام بحركة مختلفة تمامًا، وكان من الممكن أن تقفز

في وجهي عبر ذلك الفناء الحجريّ، لتنقض عليَّ مثل قطة ضخمة تنقض على فأر».

ضحك قليلًا بنعومة وقام د.سايلنس بتدوين ملحوظة في دفتره دون مقاطعة، بينما تابع فيزين بلهجة كما لو كان يخشى من أنه قد أخبره بالفعل أكثر ممّا يمكننا أن نصدّقه.

تابع: «كانت رقيقة جدًّا، ومع ذلك كانت نَشِطة للغاية بالرغم من كلّ حجمها ووزنها، وشعرت أنّها تعرف ما الذي أقوم به حتّى بعد أن مررت وكنت خلفها. لقد تحدّثت إليَّ وكان صوتُها سلسًا ومتدفّقًا. سألتْ عمّا إن كانت حقائبي معي، وعمّا إن كنت أشعر بالراحة في غرفتي، ثم أضافت أن العشاء سيكون في السابعة، وأنّهم كانوا من أوائل الأشخاص الذين أتوا هذه المدينة الريفية الصغيرة. من الواضح أنّها كانت تنوي أن تبلّغني بأن التنقّل في الساعات المتأخّرة أمرٌ غيرُ مستحب».

من الواضح أنّها كانت تتكلّم بصوت وطريقة معيّنة لإعطائه انطباعًا بأنها «ستهتم بأمره» هنا، وأنّ كلّ شيء سيتمّ ترتيبُه وتخطيطُه من أجله، وأنّه ليس عليه أن يفعل شيئًا سوى الاستسلام للعمل الرتيب وطاعته. ينبغي له ألّا يقرّر أيّ فعل أو يقوم بأيّ جهد شخصي حادّ. خرج إلى الشارع وهو يشعر

بالهدوء والسلام. لقد أدرك أنه كان في بيئة تناسبه وأنه في وجهته للطريق الصحيح. كان من السهل جدًّا أن تكون مطيعًا. بدأ يخرخر مرة أخرى كي يشعر أنّ كلّ البلدة كانت تخرخر معه.

تسكّع متمهّلًا حول شوارع تلك البلدة الصغيرة، وانحدر عميقًا عميقًا في روح السكون التي تميّزها. تجوّل هنا وهناك، بلا هدف. سقطت أشعة شمس سبتمبر المشرقة مائلة فوق الأسطح. لمح نظرات سحرية شبيهة بالألوان في السهل العظيم أدناه ومن المروج، والخمائل الصفراء ترقد مثل خريطة أحلام في الضباب، أسفل الأزقة الملتوية، المليئة بالجمالونات المتداعية والنوافذ المفتوحة. لقد شعر بسحر الماضي بقوة هنا.

كانت الشوارع مليئة بالرجال والنساء الذين يرتدون ملابس رائعة وكلّهم مشغولون بما يكفي، يسيرون في طرقهم الخاصّة، لكنّ أحدًا لم يلحظه أو حتّى التفت محدّقًا في مظهره الإنجليزي الواضح. لقد كان قادرًا على نسيان أنّه بمظهره السياحي هذا بدا وكأنّه شيءٌ خاطئ في صورة ساحرة، وقد تلاشى أكثر فأكثر في المشهد، شاعرًا بعدم أهمّيته دون الشعور بالاقتراب بسبب مظهره. كان الأمر أشبه بأن يصبحَ جزءًا من حلم ذي ألوان رقيقة حتّى إنّه لم يدرك حتّى أنه حُلم.

انحدر التلّ على الجانب الشرقي بحدة أكثر، وسرعان ما انحدرت السهول السفلية فجأة في بحر من تجمّعات الظلال المحتشدة التي بدت فيها الغابات الصغيرة تشبه الجزر وحقول الأشجار مثل المياه العميقة. كان يتجوّل في هذا المكان على طول أسوار التحصينات القديمة التي كانت ذات يوم هائلة، ولكنّها تبدو الآن منظرًا للرؤية فقط مع اختلاطها الساحر بالجدران الرمادية المكسورة والكَرْم واللبلاب. لقد رأى الممشى على طول الشاطئ بعيدًا في الأسفل راقدًا في الظل من الإفريز المائل الفسيح الذي جلس عليه للحظة، والذي كان مستويًا مع القمم المستديرة لأشجار السهل المقطوعة. تسلّل شعاع شمس أصفر هنا وهناك واستلقى على الأوراق الصفراء المتساقطة، ومن الارتفاع الذي كان فيه نظر إلى الأسفل ورأى أنّ سكّان البلدة يتمشّون جيئة وذهابًا في برد المساء. كان بإمكانه فقط سماع صوت وقع أقدامهم البطيئة، وتردّدت أصواتهم على مسمعه انطلاقا من الفجوات بين الأشجار. كانت الأشكال تبدو كظلال عندما يختلس النظر إلى تحرّكاتها الهادئة أدناه.

جلس هناك بعض الوقت وهو يتأمّل، مغمورًا في موجات وهمهمات وأصداء أصوات شبه ضائعة، ارتفعت إلى أذنيه،

مكتومة بسبب أوراق أشجار السهل. لقد بدت المدينة له كلّها، والتلّ الصغير الذي نما منها بشكل طبيعي، كما لو أنّها غابة عتيقة، كما لو أنها مستلقية هناك شبه نائمة على السهل تدندن لنفسها ويغالبها النعاس.

وفي الوقت الحاضر، عندما كان جالسًا بتكاسلٍ غارقًا في حلمه، تهادت إلى أذنيه أصوات أبواق وآلات وترية وآلات خشبية وبدأت فرقة البلدة في العزف على الطرف البعيد من المنازل المزدحمة بمصاحبة صوت طبلة ناعم وعميق. كان فيزين سريع التأثر جدًّا بالموسيقى وماهرًا في التعرّف على أصولها وكان قد غامر دون علم أصدقائه، بتأليف الألحان العذبة ذات التآلفات المنخفضة المتوالية التي عزفها لنفسه وهو يضغط بنعومة على دوّاسة البيانو عندما لم يكن أحد حوله. تطفو تلك الموسيقى عبر الأشجار من فرقة غير مرئية، رائعة الجمال بلا شكّ، من سكّان المدينة، وقد فتنته كليًّا. لم يتعرّف على أيّ شيء قاموا بعزفه، وبدا الأمر وكأنّهم يرتجلون، هكذا، دون قائد للأوركسترا. لم يحدّد بالضبط الوقت الذي مرّ أثناء عزف القطع الموسيقية التي انتهت ثم بدأت بشكل غريب بعدما عزفت الرياح على نغمات القيثارة العولسية. لقد كانت هذه الموسيقى جزءًا من المكان والمشهد، تمامًا كما

كان ضوء الشمس الباهت والرياح الشديدة جزءًا من المشهد والزمن، وقد نفذت النغمات الرقيقة للأبواق الشجية ذات الطراز القديم، هنا وهناك انطلاقا من آلات وترية أكثر حدّة ولكنّها كانت مكتومة بسبب الطرق المستمرّ على الطبول ذات الصوت العميق، التي لمست نفسه بسحر غريب فعّال استحوذ على نفسه وأسعده تمامًا.

كان هناك شعور غريب بالسحر في كلّ شيء. بدت الموسيقى بالنسبة له طبيعية بشكل غريب. جعلته يفكّر في الأشجار التي اجتاحتها الرياح ونسائم الليل التي تسري في أسلاك البرق والمداخن الكثيرة، أو في حبال السفن غير المرئية، والتشبيه الذي قفز في أفكاره بإيعاز شديد مفاجئ هو مجموعة من الحيوانات؛ من المخلوقات البرية الموجودة في مكان ما في أماكن مهجورة من العالم، تصرخ وتغنّي للقمر. كان بإمكانه أن يتخيّل أنّه سمع نحيب قطط يشبه نحيب الإنسان، على البلاط في الليل، يرتفع وينخفض بفواصل صوتية غريبة. وتلك الموسيقى التي اختفى صوتها بسبب المسافة والأشجار، جعلته يفكّر في اتحاد غريب لهذه المخلوقات على سطح ما بعيد في السماء، لينطقوا بموسيقاهم المهيبة بعضهم لبعض وللقمر في جوقة.

لقد شعر في ذلك الوقت أنّ ما خطر بباله كان أمرًا غريبًا، ومع ذلك فقد عبّر عن إحساسه أفضل من أيّ شيء آخر أيضًا. عزفت الآلات تلك الفواصل اللحنية الغريبة مستحيلة العزف، وكان ارتفاع وانخفاض الصوت التدريجي للموسيقى يوحي للغاية بأنّ هذه البلدة هي أرض القطط كما يبدو ذلك على أرضياتها القرميدية في الليل، يرتفع الصوت سريعًا وينخفض دون سابق إنذار على النغمات الغليظة مرة أخرى، وكل ذلك في مثل هذا الارتباك الغريب بين الألحان المتناغمة والناشزة. ولكن في الوقت نفسه كانت هناك عذوبة كئيبة، وكان النشاز الناتج عن تلك الآلات نصف المكسورة غريب جدًّا، حتى إنه لم يسئ إلى روحه الموسيقية مثلما تفعل أصوات الكمان الناشزة.

استمع مدة طويلة وانصاع للأمر، تمامًا كما كانت شخصيته، ثم قام بالتجوّل في اتجاه المنزل عند الغسق لأنّ برودة الهواء تزايدت.

أضاف د.سايلنس باختصار: «ألم يكن هنالك شيءٌ يدعو للقلق؟».

قال فيزين: «لا شيء على الإطلاق. لكنّك تعلم أنّ الأمر

كان خياليًا وساحرًا حتّى إنّ مخيّلتي تأثرت بشدة». واستمرّ موضّحًا بلطف: «ربّما أيضًا كانت هذه الاستثارة لخيالي هي التي تسبّبت في انطباعات أخرى؛ لأنه عندما عدت إلى المنزل، بدأ سحر المكان يخطف نفسي بطرق كثيرة، وبأوضح ما يكون، لكن كانت هناك أشياء أخرى لم أتمكّن من أخذها في على محمل الجد حتّى ذلك الحين».

«أتقصد الوقائع التي حدثت؟».

«أظن أنّها بالكاد يمكن عدّها وقائع. لقد تزاحم في ذهني الكثير من الأحاسيس النابضة بالحيوية ولم أتمكّن من تتبّعها لأعرف أسبابها. لقد كان ذلك بعد غروب الشمس مباشرة، وقد رسمت المباني القديمة المتداعية خطوطًا عريضة سحرية في مقابل سماء برّاقة ذهبية وحمراء. كان الغسق يأفل في الشوارع المتشابكة، والسهل يعانق التلّ وكأنه بحر قاتم ترتفع أمواجه مع الظلام. كما تعلم فإنّ سحر هذا النوع من المشاهد يمكنه أن يكون مثيرًا للمشاعر جدًّا وهذا ما حدث في تلك الليلة. ومع ذلك، شعرت أنّ ما حدث لي ليس له علاقة مباشرة بغموض وغرابة المشهد».

أضاف الطبيب ملاحظًا تردّده: «لم يكن الأمر مجرّد

التحوّلات الطفيفة للروح التي تصاحب مشهدًا جماليًّا».

استمرّ فيزين وتشجّع بشكل كافٍ ولم يعد قلقًا للغاية من ابتسامتنا على عيوبه: «بالضبط. لقد وافتني هذه الانطباعات من مكان آخر. على سبيل المثال، في الشارع الرئيس المزدحم، حيث كان الرجال والنساء متوجّهين إلى منازلهم بعد العمل، يتسوّقون من الأكشاك وعربات البضائع وهم يثرثرون في مجموعات وما إلى ذلك... لقد أدركت أنّني لم أُثِر أيّ اهتمام، وأنّه لم يلتفت إليّ أحد محملقًا فيَّ كوني أجنبيًا وغريبًا. لقد تجاهلونني تمامًا ولم يُثر وجودي بينهم أي اهتمام خاص أو انتباه. بعد ذلك تبدّى لي فجأة باقتناع راسخ بأن هذه اللامبالاة وهذا التجاهل كانا مزيّفين طوال الوقت. في الحقيقة كان الجميع يراقبوني من كثب. كل حركة قمت بها كانت معروفة ومراقبة. كان كلّ تجاهلهم لي مجرد تظاهر؛ تظاهرًا متقنًا».

توقّف عن الكلام مؤقّتًا ونظر إليَّ ليرى ما إن كنت أبتسم، ثم تابع مطمئنًا:

«من غير المجدي أن تسألني كيف لاحظت ذلك، لأنني فقط لا أستطيع تفسير هذا. لكن هذا الاكتشاف قد صدمني بعض الشيء. مع ذلك، وقبل أن أعود إلى النُزل، بزغ شيء

غريب آخر بقوة في ذهني وأجبرني على الاعتراف بحقيقة هذا. يمكنني في الحال أن أقول إنّ هذا أيضًا كان من المتعذّر تفسيره بالقدر نفسه بالنسبة لي. أقصد أنه لا يمكنني إلا أن أعطيك الحقيقة، كما كان الأمر بالنسبة لي تمامًا».

غادر الرجل الضئيل كرسيه ووقف على السجادة أمام النار. تضاءلت مشاعره من ذلك الوقت فصاعدًا لأنه فقد نفسه مرة أخرى في سحر المغامرة القديمة. كانت عيناه قد أشرقتا بالفعل وهو يتحدث.

ثم مضى يتحدث... وكان صوته الناعم يرتفع إلى حدّ ما مع إثارته: «حسنًا. كنت في متجر عندما حدث الأمر معي في البداية، مع أنّ الفكرة كانت موجودة مدّة طويلة في اللاوعي، إلّا إنها ظهرت في شكل كامل بعد ذلك فجأة. حينها كنت أشتري جوارب على ما أظنّ -ضحك- وأكافح مع فرنسيتي الرديئة، عندما أدهشني أنّ المرأة التي في المتجر لم تبد أيّ اهتمام سواء اشتريت شيئًا أم لا. لقد كانت غير مبالية سواء قامت بالبيع أم لا. كانت تتظاهر فقط بالبيع. يبدو هذا حادثًا صغيرًا غريبًا جدًّا كي تبني عليه ما يتبعه من أحداث. ولكن في الحقيقة لم يكن صغيرًا. أقصد أنّه كان الشرارة التي سبّبت ذلك التوهّج الكبير

في ذهني. لقد أدركت فجأة أنّ المدينة كلّها كانت شيئًا ما آخر يختلف عما رأيته حتى الآن. كانت الأنشطة والاهتمامات الحقيقية للناس في مكان آخر، مختلفًا عمّا ظهر. كانت حياتهم الحقيقية تكمن في مكان ما بعيدًا عن الأنظار خلف الكواليس. لم يكن هذا سوى المظهر الخارجي الذي حجب أهدافهم الفعلية، فقد اشتروا وباعوا وأكلوا وشربوا وساروا في الشوارع، ومع ذلك كان التيار الرئيس لوجودهم يتوارى في مكان ما بعيدًا عن ناظري، تحت الأرض، في أماكن سرية. لم يبالوا في المتاجر وفي الأكشاك إن كنت قد اشتريت من سلعهم أم لا، وكذلك وفي النُزل، كانوا غير مبالين ببقائي أو ترحالي. كانت حياتهم مختلفة تمامًا عن حياتي، تستمدّ وجودها من مصادر خفية وغامضة، وتسير بعيدة عن الأنظار غير معروفة. كان كل ذلك مجرد تظاهر كبير متقن، من المفترض أن يكون لمصلحتي، أو من الممكن أن يكون لأغراض خاصة بهم. لكن التيار الرئيس لطاقاتهم كان يتدفّق في مكان ما آخر. شعرت تقريبًا أنّ الأمر من المتوقّع أن يتعلّق بوضعي كشيء أجنبي غير مرحّب به، وجدت طريقها إلى النظام البشري ويبدأ الجسم كلّه في تنظيم نفسه كي يطرده أو يمتصه. كانت المدينة تفعل هذا الشيء لي.

استولت على عقلي هذه الفكرة الغريبة بقوة عندما عُدت إلى النزل، وبدأت أتساءل باهتمام عن أين يمكن أن تكمن الحياة الحقيقية لهذه المدينة، وما هي الاهتمامات والأنشطة الفعلية لتلك الحياة الخفية.

والآن بعد أن انفتحت بصيرتي جزئيًا، لاحظت أشياء أخرى أيضًا حيرتني، وأولها، في ظني، كان الصمت غير العادي للمكان كله. من المؤكد أن البلدة كلها كانت صامتة. على أن الشوارع كانت مرصوفة بالحصى، كان الناس يتنقلون بصمت ونعومة بأقدام مبطنة مثل القطط. لم يكن هناك شيء يُصدر ضجيجًا. كان كل شيء هادئًا خافتًا مكتومًا. كانت الأصوات هادئة أو منخفضة النغمة مثل الخرخرة. لم يكن هناك شيء صاخب أو عنيف أو لافت للنظر يمكنه أن يعيش في ذلك المناخ الناعس الحالم الذي سكّن هذه البلدة الصغيرة في نومها. كان الأمر يشبه المرأة التي في النُزل. هدوء خارجيٌّ يحجب النشاط والهدف الداخليّ الشديد.

ومع ذلك، لم تكن هناك أيُّ علامات على الخمول أو التباطؤ في أيّ مكان حولها. كان الناس نشيطين ومتيقّظين. لم تكن هناك سوى نعومة سحرية غريبة تكمن فيهم جميعًا مثل السحر».

مرَّر فيزين يده عبر عينيه لحظة كما لو أنّ الذاكرة أصبحت نشطة للغاية. تحوّل صوته إلى همس حتى إني سمعت الجزء الأخير بصعوبة. لقد كان يقول شيئًا حقيقيًا بشكل واضح لكنّه كان شيئًا يحبّ قوله ويكرهه في الوقت ذاته.

تابع حديثه بصوت أعلى: «لقد عدتُ إلى النزل وتناولت العشاء. شعرت بعالم جديد وغريب حولي. لقد تراجع عالمي الحقيقي القديم. كان يكمن هنا شيء جديد مبهم، سواء أحببت ذلك أم لا. لقد ندمت على تركي القطار باندفاع شديد. كانت هناك مغامرة في انتظاري وقد أبغضت المغامرات إذ إنّها غريبة عن طبيعتي. إضافة إلى ذلك، كانت هذه بداية مغامرة على ما يبدو. في مكان ما عميق بداخلي، في منطقة لم أستطع التحقّق منها أو أقدّرها، شعرت بالانزعاج مختلطًا بتعجّبي؛ إنه انزعاج بخصوص استقراري الذي خبرته على أنه «شخصيّتي» مدة أربعين عامًا.

صعدت إلى فراشي في الطابق العلوي وعقلي يعجّ بالأفكار التي كانت غير عادية بالنسبة لي، وبالأحرى كانت بمثابة وسواس مزعج. ظللت أفكّر في ذلك القطار اللطيف الصاخب وكلّ المسافرين الأصحاء الثرثارين، وذلك بمثابة طريقة أريح

بها نفسي. كنت أتمنّى أن أكون معهم مرة أخرى، لكنّ أحلامي أخذتني إلى مكان آخر. حلمت بقططٍ ومخلوقاتٍ تتحرّك بخفّة وحلمت بصمت الحياة في عالم غامض خافت يتجاوز الحواسّ».

2

استمرّ فيزين في الإقامة يومًا بعد الآخر، إلى أجل غير مسمّى، مدة أطول بكثير ممّا كان ينوي. لقد شعر بحالة من الذهول والنعاس. لم يكن يفعل شيئًا معيّنًا، لكن المكان فتنه ولم يتمكّن من أن يأخذ قرارًا بالرحيل. كانت القرارات دائمًا صعبة للغاية بالنسبة له، وكان يتساءل أحيانًا كيف يمكنه أن يصل إلى قرار مغادرة القطار. بدا الأمر كما لو أنّ شخصًا ما قد رتّب له ذلك. وحدث مرة أو مرتين أن خطر على فكره ذلك الفرنسيّ ذو البشرة الداكنة الذي جلس قبالته. لو كان بإمكانه أن يفهم تلك الجملة الطويلة التي تنتهي بغرابة شديدة بعبارة: «بسبب النوم وبسبب القطط»، لتساءل عن معنى ذلك.

في هذه الأثناء، استحوذت عليه نعومة البلدة الصامتة كسجين، وسعى في طريقه المشوّش اللطيف كي يكتشف أين كان يكمن الغموض، وما الذي يدور حول ذلك الغموض. لكنّ لغتَه الفرنسيةَ المحدودةَ وكراهيته الفطرية للتحقيق النشط، جعلت من الصعب عليه أن يمسك بتلابيب أيّ شخص ويطرح عليه الأسئلة. لقد اكتفي بالملاحظة والمراقبة دون أن يفعل شيئًا.

كان الطقس هادئًا وضبابيًّا، وكان مناسبًا له تمامًا. تجوّل في المدينة حتّى عرف كلّ شارع وزقاق. لقد سمح له الناس أن يأتيَ ويذهبَ دونَ مانعٍ أو عائق، مع أنّه أصبح واضحًا أكثر بالنسبة له كلّ يوم أنّه لم يكن حرًّا قطّ من مراقبتهم. راقبته البلدة كما لو أنّها قطّة تراقبُ فأرًا، ولم يقترب من اكتشاف ما كانوا جميعهم مشغولين به أو أين يقع مصدر التيّار الرئيس لأنشطتهم. ظلّ هذا مخفيًّا عنه. كان الناس ناعمين وغامضين مثل القطط.

لقد أصبح واضحًا له يومًا بعد يوم أنّه كان باستمرار تحت الملاحظة.

على سبيل المثال، عندما كان يتجوّل نحو نهاية المدينة ويدخل حديقة عامّة خضراء صغيرة أسفل الأسوار ويجلس على أحد المقاعد الفارغة تحت أشعة الشمس، كان وحيدًا تمامًا في بداية وصوله. لم يكن هناك مقعدٌ آخر مشغولٌ. كانت الحديقة الصغيرة فارغة والممرّات مهجورة. ومع ذلك، ففي غضون عشرة دقائق من مجيئه لا بدّ أنّ هناك عشرين شخصًا منتشرين حوله، يتجوّل بعضهم بلا هدف على طول طُرق الحصى ويحدّقون بالزهور، ويجلس آخرون على مقاعد خشبية يستمتعون بالشمس مثله. لم يبدُ على أحدهم أنّه كان

يعيره أيّ انتباه، ومع ذلك فقد أدرك جيّدًا أنهم قد أتوا جميعًا لمراقبته. لقد أبقوه تحت الملاحظة الدقيقة. لقد بدَوا مشغولين بما فيه الكفاية في الشارع، يسرعون لأجل مهمّات مختلفة ومع ذلك فقد تمّ نسيانُ كلّ هذه الأشياء فجأة، ولم يكن لديهم أيّ شيء سوى الاسترخاء والسكون في الشمس، ولم يعودوا يهتمّون بواجباتهم. بعد خمس دقائق من مغادرته أصبحت الحديقة مهجورة مرة أخرى والمقاعد شاغرة. ولكن في الشارع المزدحم، كان الأمر نفسه مرة أخرى؛ لم يكن وحيدًا قطّ. كان دائمًا في أفكارهم.

لقد بدأ يدرك أيضًا تدريجيًّا كيف كانوا يراقبونه بذكاء دون أن يُظهروا ذلك. لم يفعل الناس شيئًا بشكل مباشر. لقد تصرّفوا بشكل غير مباشر. ضحك في ذهنه لأنّ الفكر كان يعبّر عن نفسه بهذه الكلمات، ولكن العبارات وصفت ذلك بالضبط. نظروا إليه من الزوايا التي كان من الطبيعي أن تقود نظرهم في اتجاه آخر تمامًا. كانت تحرّكاتهم غير مباشرة أيضًا عندما يكون الأمر متعلّقًا به. من الواضح أنّ الشيء المباشر والمستقيم لم يكن طريقهم. لم يفعلوا شيئًا واضحًا. إذا دخل إلى متجر للشراء، انشغلت المرأة من فورها بشيء ما في الطرف البعيد من الطاولة، مع أنّها كانت تجيبه من فورها إن سأل، ممّا يدلّ

على أنها عرفت أنه هناك وأنّ هذه هي طريقة اهتمامها به فقط. لقد كانت تتصرّف بطريقة القطّة نفسها. حتّى في غرف الطعام في النزل، لم يبدِ قطّ النادلُ الصامتُ والمهذّب، والساكن في جميع تحرّكاته، القدرةَ على الذهاب مباشرة إلى طاولته لطلب أو لوجبة. كان يأتي بطريقة متعرّجة، بشكل غير مباشر، غامضاً، ولذلك بدا أنه ذاهب إلى طاولة أخرى تمامًا ولم يتحوّل إلا فجأة في اللحظة الأخيرة، وصار هناك بجانبه.

ابتسم فيزين بشدة عندما وصف كيف بدأ في إدراك هذه الأشياء. لم يكن هناك مزيدٌ من السائحين في المنزل، لكنّه تذكّر شخصَين مسنَّين من المقيمين، اللذين تناولا إفطارهما وعشاءهما هناك، وتذكّر كيف دخلا الغرفة بالطريقة الغريبة نفسها. في البداية، توقّفا مؤقتًا عند المدخل وهما يتطلّعان إلى الغرفة، وبعد ذلك، وبعد إجراء فحص مؤقت، دخلا من الزاوية وبقيا على مقربة من الجدران، حتّى إنه تساءل عن المائدة التي سيتقدّمون إليها، وعند اللحظة الأخيرة ركضا قليلًا إلى مقاعدهم الخاصّة. فكّر مجدّدًا في طرق القطط وأساليبها.

خلفت في نفسه -أيضًا- حوادث صغيرة أخرى انطباعًا قويًّا على أنها جزء من هذه المدينة الهادئة اللطيفة بحياتها الخافتة

الغامضة، بسبب الطريقة التي ظهر بها بعض الناس واختفوا بسرعة شديدة ممّا حيَّره جدًا. لقد كان كلّ شيء طبيعيًا تمامًا، على حدّ علمه، ومع ذلك لم يستطع أن يوضّحَ كيف ابتلعتهم الأزقّة ثم قذفت بهم للخارج في ثانية من الوقت، عندما لم تكن هناك مداخل أو فتحات مرئية قريبة بدرجة كافية لتفسير هذه الظاهرة. بمجرّد أن تتبّع امرأتين مسنّتين، شعر أنّهما كانتا تتفحصانه بشكلٍ خاصّ من الجانب الآخر من الشارع بالقرب من النُزُل، ورآهما تنعطفان إلى الزاوية على بعد أقدام قليلة فقط أمامه. ومع ذلك فعندما تتبّعهما برشاقة لم ير شيئًا سوى زقاق مهجور تمامًا يمتدُّ أمامه دون أيّ علامة على وجود شيء حيّ، وكانت توجد شرفة وهي الفتحة الوحيدة التي من الممكن الفرار انطلاقا منها وكانت تبعد حوالي خمسين ياردة، ولم يكن ممكنًا أن يصل إليها أسرع عدّاء بشريّ في ذلك الوقت.

كان هذا النمط من الناس يظهر في الوقت الذي لم يكن يتوقّع ظهورهم أبدًا. ذات مرة عندما سمع ضجّة كبيرة من الشجار الدائر خلف حائط منخفض، وأسرع كي يرى ماذا يحدث، رأى مجموعة من الفتيات والنساء منهمكات في حديث صاخب، وسرعان ما صمتن وأصبح الحديث يدور بالهمس المعتاد للمدينة عندما ظهر رأسه من أعلى الحائط.

حتّى مع ذلك، لم تلتفت أيّ منهنّ كي تنظر إليه مباشرة، لكنهن تسللن خلسّة بأقصى سرعة داخل الأبواب والأكواخ عبر الفناء. لقد ظن أنّ أصواتهنّ كانت غريبة جدًّا، تبدو مثل زمجرة حيوانات تتعارك؛ وعلى ما يبدو أنّها قطط.

مع ذلك، استمرّ جوُّ المدينة العام كلّه في التهرّب منه باعتباره شيئًا مراوغًا ومستترًا عن العالم الخارجي، وفي الوقت ذاته واضح ومفعم بالحيوية... ولأنه الآن أصبح جزءًا من هذه الحياة فقد أربكه وأغضبه هذا الاختفاء، والأكثر من ذلك أنه بدأ يخيفه.

وبعيدًا عن هذا الجوّ الضبابي الذي بدأ يتجمّع ببطء حول سطح أفكاره العادية، راودته مجدّدًا فكرة أنّ السكّان كانوا ينتظرون منه أن يعلن عن نفسه، أو يتخذ موقفًا، ويقوم بهذا أو ذاك من الأمور، وأنه عندما يفعل ذلك سيلتفتون إليه بدورهم في آخر المطاف، وإمّا أن يقبلوه أو يرفضوه. ومع ذلك، فإنّ المسألة الحيوية المتعلّقة بقراره لم تقترب من تفكيره.

حدث مرة واحدة أو مرتين، أن تابع عن قصد مواكب أو مجموعات صغيرة من المواطنين كي يعرف -إن كان ذلك ممكنًا- الهدف الذين ينحنون له، ولكنّهم دائمًا ما كانوا يكتشفون

نياته في الوقت المناسب ويختفون. كلّ فرد يسير بطريقته الخاصّة. لقد كان الأمر كما هو دائمًا؛ لم يستطع قطّ معرفة ماهية اهتماماتهم الرئيسة. كانت الكاتدرائية دائمًا فارغة، وكانت كنيسة سانت مارتن القديمة في الطرف الآخر من المدينة مهجورة. لقد تسوّقوا لأنّهم اضطرّوا إلى ذلك، وليس لأنّهم كانوا يرغبون في ذلك. بدت الأكشاك مهجورةً وقاعات عرض السلع لا يزورها أحد والمقاهي الصغيرة مقفرة. ومع ذلك كانت الشوارع ممتلئة على الدوام، وكان سكّان البلدة في ضجيج دائمًا.

فكَّر في نفسه: «هل يمكن أن يكون الأمر كذلك؟»، لكن مع ضحكة استنكارية بسبب التفكير في أنّه ربّما قد تجاسر على التفكير في شيء غريب جدًّا... «هل يمكن أن يكون أولئك الأشخاص هم أشخاص الفجر فقط، الذين يعيشون حياتهم الحقيقية في الليل فقط، وأنّهم يظهرون فعليًا مع الغسق فقط؟ هل يقومون أثناء النهار بعمل تمثيلية على الرغم من ادّعائهم، وبعد أن تغرب الشمس تبدأ حياتهم الحقيقية؟ هل لديهم أرواح الليل، والمدينة المباركة كلّها بين أيدي القطط؟».

لقد أثاره الخيال بقوة، مع القليل من صدمات الانكماش والفزع. ومع ذلك، فعلى أنه تظاهر بالضحك، إلا أنه علم أنه

بدأ يشعر بشيء أكبر من عدم الارتياح، وأنّ هناك آلاف القوى الغريبة غير المرئية، في قلب كيانه، كانت تشده بربطٍ. بدأ شيء ما، بعيد تمامًا عن حياته العادية، شيء لم يكن مستيقظًا لسنوات، في إثارة روحه بشكل ضعيف، مرسلًا مجسّات في كلّ اتجاه داخل عقله وقلبه، صائغًا أفكارًا غريبة ومتغلغلًا حتى في بعض أفعاله العادية. إنه شيء حيوي للغاية بالنسبة له ولروحه، غير معروف نتائجه.

ودائما عندما كان يعود إلى النزل في ساعة غروب الشمس تقريبًا، كان يرى شخصيات من سكان البلدة ينسلون أثناء الغسق من أبواب متاجرهم، ويتحرّكون جيئة وذهابًا بحذر في زوايا الشوارع، ولكن دائما ما كانوا يختفون في صمت كالظلال وهم يقتربون منه، ونظرًا لأنّ النُزُل كان يغلق أبوابه دائمًا في الساعة العاشرة، فلم يجد أبدًا الفرصة التي سعى إليها بشغف كي يعرف ما الذي يمكن للمدينة أن تفعله في الليل.

«—— بسبب النوم وبسبب القطط»... أخذت هذه الكلمات ترنّ في آذانه أكثر فأكثر، مع أنّها لم تزل دون أي معنى محدّد.

إضافة إلى ذلك، فهناك شيء ما جعله ينام نومًا ثقيلا كنوم الموتى.

3

في اليوم الخامس على ما أظن -مع أنّ قصّته كانت متباينة إلى حدٍّ ما- اكتشف شيئًا محدّدًا زاد من قلقه حتّى الذروة. قبل ذلك كان قد لاحظ بالفعل أنّ هناك تغيّرًا ما، وأنّ بعض التغيّرات الطفيفة تحدث في شخصيته التي عدلت الكثير من عاداته الصغيرة التي تظاهر بأنه قد تجاهلها. ومع ذلك، كان هناك شيء ما أذهله ولم يعد بإمكانه تجاهله.

في أفضل الأوقات لم يكن أبدًا إيجابيًّا، كان دائمًا سلبيًّا مذعنًا ومنصاعًا، ومع ذلك، كان قادرًا عند الضرورة على القيام بإجراءات قوية بشكل معقول وكذلك قادر على اتخاذ قرارات قوية. كان الاكتشاف الذي قام به الآن، الذي أدّى به إلى هذا المنعطف الحادّ، هو أنّ هذه القوة قد تضاءلت بشكل إيجابي إلى لا شيء. لقد وجد أنه من المستحيل أن يتّخذ قرارًا، لأنّه أدرك في هذا اليوم الخامس أنّه قد بقي طويلًا في البلدة بما يكفي وأنه لأسباب معيّنة غامضة، أدرك أنّ رحيله كان هو الأمر الأكثر حكمة وأمانًا، ثم وجد أنه لم يستطع الرحيل.

كان من الصعب وصف الآتي بالكلمات، لذا قد نقل

إلى الدكتور سايلنس حالة العجز التي وصل إليها عن طريق تعبيرات وجهه. قال إنّ كلّ هذا التجسّس والمراقبة كان ينسج شبكة حول قدميه، حتى إنّه قد سقط في شرك ولم يستطع عن الهرب. لقد شعر كأنّه ذبابة تخبّطت في تعقيدات شبكة ضخمة. لقد تمّ القبض عليه، وسُجن، ولم يتمكّن من الهرب. كان إحساسًا مؤلمًا. لقد تسلّل الخدر إلى إرادته حتى أصبح غير قادر على اتخاذ القرار. لقد بدأ يرتعب من مجرد التفكير في القيام بفعل قوي يخصّ مسألة الهروب. لقد انقلبت جميع التيارات في حياته عليه، حيث سعت إلى جلب شيء ما إلى السطح كان مدفونًا ولا يمكن الوصول إليه، شيء بعيد المنال. لقد قرَّر أن يجبر نفسه على إدراك شيء ما قد نُسي منذ مدّة طويلة؛ نُسي منذ سنوات وسنوات، بل منذ قرون مضت. بدا كما لو أنّ نافذة عميقة داخل كيانه ستنفتح في الوقت الحاضر وتكشف عن عالم جديد تمامًا، ولكن حتّى الآن فإنّه عالم غير مألوف بطريقةٍ ما. تخيّل بعد ذلك، مرة أخرى، ستارة كبيرة معلقة وعندما تُرفع، سيرى ما هو أكثر في هذه المنطقة، وفي النهاية يفهم شيئًا ما عن الحياة السرية لهؤلاء الأشخاص غير العاديين.

سأل نفسه بقلب مضطرب إلى حدّ ما: «هل هذا هو السبب

في أنهم ينتظرون ويراقبون الوقت الذي انضمّ فيه إليهم أو أرفض الانضمام إليهم؟ هل يبقى القرار بيدي مت كل ذلك، وليس بأيديهم؟».

في هذه المرحلة، أعلنت الشخصية الشريرة عن نفسها أول مرة في تلك المغامرة، فأصبح يشعر بالقلق حقًّا. لقد شعر أنّ استقرار شخصيته المائعة الضعيفة كان في خطر، وأنّ شيئًا ما في قلبه قد أصبح جبانًا.

ومن ناحية أخرى لماذا كان يجب عليه دائمًا أن يستمرَّ في السير خلسة بصمت، محدثًا صوتًا منخفضًا بأقل قدر ممكن عندما ينظر خلفه؟ لماذا كان يجب عليه أن يتحرّك على رؤوس أصابعه انطلاقا من الدهاليز الواقعة في النُزُل المهجور، وعندما يكون في الخارج يجد نفسه يستغلّ بتروّ ما يحدث معه؟ ولماذا ينبغي له، إن لم يكن خائفًا، أن يكون حكيمًا ويظلّ في المنزل بعد غروب الشمس، وقد حدث له فجأة هذا الأمر وأصبح راغبًا فيه بشكل كبير؟ لماذا ذلك حقًا؟

عندما ضغط عليه جون سايلنس برفق لإيضاح هذه الأشياء، اعترف وهو يقدم اعتذاراته أنّه لم يكن لديه ما يقوله.

«فقط كنت أخشى أن يحدث لي شيء إن لم أكن حذرًا

جدًّا. شعرت بالخوف. كان الأمر غريزيًّا»، كان هذا كلّ ما أمكن أن يقوله. «أصبح لدي انطباع بأن المدينة كلّها كانت تتبعني، وكانوا يريدونني من أجل شيء ما وأنّهم إن تمكّنوا مني فسوف أفقد نفسي، أو على الأقل النفس التي كنت أعرفها، في حالة من الوعي غير المألوف. لكنّني لست اختصاصيّا نفسيًا، كما تعلم». ثم أضاف بخوف: «ولا يمكنني تحديد الأمر بشكل أفضل من ذلك».

لقد اكتشف فيزين هذا عندما كان يتسكّع في الفناء قبل نصف ساعة من تناول وجبة العشاء، وتوجَّه في الحال إلى الطابق العلوي إلى غرفته الهادئة في نهاية الممر المتعرّج كي يفكّر في الأمر بمفرده. كان الفناء فارغًا تمامًا، هذا صحيح ولكن كان هناك دائمًا احتمال أن تخرج المرأة الكبيرة التي كان يخشاها من باب ما، بحجّة القيام بأعمال الغزل كي تجلس وتراقبه. لقد حدث هذا عدة مرات، ولم يستطع تحمل رؤيتها. كان لا يزال يتذكّر ما كان يتخيّله، على كل غرابته. تخيل أنها ستثب عليه فور أن يدير ظهره وتهبط على عنقه بقفزة ساحقة. بالطبع كان هذا هراء، لكن الوسواس كان يلازمه، وبمجرّد أن تبدأ فكرة في القيام بذلك، فإنّ الأمر لا يكون هراء. لقد أطبقت عليه هذه الفكرة في الواقع.

بناء على ذلك صعد إلى الطابق العلوي. كان غسقًا، ولم تكن مصابيح الزيت قد أضيئت في الممرات بعد. تعثر على سطح الأرضيات القديمة غير المستوي، مرورًا بالحدود الباهتة للأبواب على طول الممر؛ أبواب لم يسبق له أن يراها مفتوحة من قبل؛ حجرات لم تبد مشغولة قطّ. تحرّك خلسة على رؤوس أصابعه وقد أصبحت عادته.

كان هناك منعطف حادٌّ في منتصف الممرّ الأخير المؤدّي إلى غرفته، وهنا فقط، بينما كان يتلمّس طريقه حول الجدران ويداه ممدودتان، لمست أصابعه شيئًا لم يكن جدارًا؛ شيئًا يتحرّك. كان ناعمًا ودافئًا في ملمسه، عَطِرًا بشكل لا يوصف، ويصل ارتفاعه إلى مستوى كتفه وسرعان ما قد فكّر في أنها هريرة مكسوّة بالفراء، ذات رائحة حلوة. في اللحظة التالية، عرف أنّها شيء مختلف تمامًا.

وبدلًا من تحرّي الأمر -فكما قال إنّ أعصابه لا بدَّ وأن كانت مهتاجة جدًا- عاد للخلف مقتربًا بقدر استطاعته من الجدار الموجود على الجانب الآخر. انزلق ذلك الشيء بجواره مُحدثًا صوت خشخشة، وتراجع بخطى خفيفة إلى الممرّ من خلفه واختفى. اندفع هواء عطر دافئ إلى فتحتَي أنفه.

التقط فيزين أنفاسه لحظة وتوقّف مؤقّتًا، واستند على الجدار بدرجة خفيفة، ثم ركض المسافة المتبقية ودخل غرفته بسرعة وأقفل الباب خلفه على عجل. ومع ذلك لم يكن الخوف هو الذي جعله يركض؛ لقد كانت الإثارة، الإثارة الممتعة. كانت أعصابه ترتعش وكان هناك توهّج لذيذ شعر به في كلّ جسده. في ومضة، بدا له أنّ هذا ما كان يشعر به قبل خمسة وعشرين عامًا، مثل صبيّ عندما وقع في الحبّ أول مرة. ركضت تيارات الحياة الدافئة في كلّ كيانه وصعدت إلى دماغه في دوّامة فرحة ليّنة. أصبح مزاجه فجأة عذبًا ورقيقًا ومحبًّا.

كانت الغرفة مظلمة للغاية وقد انهار على الأريكة بجانب النافذة، متسائلاً عمّا حدث له وما الذي يعنيه كلّ ذلك. لكنّ الشيء الوحيد الذي فهمه بوضوح في تلك اللحظة هو أنّ شيئًا ما قد تغيَّر فيه بسرعة، بطريقة بديعة. لم يعد يرغب في الرحيل أو في الجدال مع نفسه حول ذلك. لقد غيَّر هذا اللقاء غير المتوقّع، في طريق مروره، من كلّ هذا. لم يزل العطر الغريب الصادر منه ملتصقًا به مُربكًا قلبه وعقله، لأنه كان يعلم أنّ التي مرت بجواره فتاة، إنّه وجه فتاة؛ ذلك الذي كانت أصابعه تمسّه في الظلام، وقد شعر بطريقة غير عادية كما لو أنّها قد قبّلته؛ قبلة كاملة على الشفتَين.

جلس على الأريكة بجانب النافذة مرتعشًا وناضل كي يجمع شتات أفكاره. لم يكن قادرًا تمامًا على فهم كيف يمكن لمجرد مرور فتاة في الظلام، في ممرّ ضيّق، أن يثير كلّ كيانه حتّى إنّه لا يزال يهتزّ بحلاوة ذلك. ومع ذلك، كان هذا ما حدث! فوجد أنّ الإنكار غير مجدٍ وكذلك محاولة التحليل. لقد دخلت بعض النار القديمة إلى عروقه، والآن بدأت تسري في دمائه، ولأنه كان في الخامسة والأربعين بدلًا من العشرين لم تكن ذات أهمية تذكر. ظهرت حقيقة واحدة، من بين كلّ الاضطرابات والارتباك الداخلي، مفادها أنّ الجوَّ في حدّ ذاته واللمسة العرضية لهذه الفتاة غير المرئية وغير المعروفة في الظلام، كانت كافية لإثارة حرائق نائمة في مركز قلبه، وإثارة كيانه كلّه من حالة من الركود الضعيف إلى واحدة من أنواع الإثارة الهائجة التي اخترقته.

بعد مرور مدة، بدأ عدد سنوات فيزين في توكيد قوّتها التراكمية. لقد أصبح أكثر هدوءًا، وفي آخر المطاف عندما تناهى إليه صوت طرق على بابه وسمع صوت النادل مشيرًا إلى أنّ العشاء على وشك الانتهاء، استجمع شتاتَ نفسه واتّجه ببطء إلى الطابق السفلي ودخل غرفة الطعام.

رفع الجميع رؤوسهم عند دخوله لأنّه كان قد تأخّر للغاية، لكنّه أخذ مقعده المعتاد في الزاوية البعيدة وبدأ يأكل. كانت أعصابه لا تزال ترتجف، ولكن حقيقة أنّه مرّ في الفناء والقاعة دون أن يلاحظ وجود ثوب نسائي، ساعد في تهدئته قليلًا. أكل بسرعة كبيرة، وما إن انهمك تمامًا في تناول الطعام، حتّى لفتت انتباهه ضجّة طفيفة في الغرفة.

لقد كان كرسيه موضوعًا بحيث كان الباب والجزء الأكبر من قاعة الطعام من خلفه، ومع ذلك لم يكن من الضروري أن يلتفت حوله لمعرفة أن الشخص نفسه الذي مر به في الممر المظلم قد دخل الغرفة الآن. لقد شعر بحضورها قبل أن يرى أو يسمع أحد بوقت طويل، ثم أدرك أن المسنين من الرجال والضيوف الآخرين فقط، كانوا ينهضون، وواحدًا تلو الآخر، من أماكنهم ويتبادلون التحيات مع شخص ما يمر بينهم من طاولة إلى الأخرى. وفي آخر المطاف عندما التفت وقلبه يخفق مهتاجًا كي يتحقق من الأمر بنفسه، رأى فتاة صغيرة، رشيقة ونحيلة، تتحرك إلى وسط الغرفة متّجهة مباشرة إلى طاولته في الزاوية. لقد تحرّكت بشكل عجيب وبرشاقة مثل نمر صغير، وقد ملأه قربها بذات الارتباك المبهج. لم يكن قادرًا في البداية أن يخبرني كيف كان وجهها، ولم يكن قادرًا

كذلك على اكتشاف كيف كان الخضوع الكلي لتلك المخلوقة يملأه ثانية بالإثارة والسرور.

سمع صوت النادل العجوز من جانبه: «آه... لقد عادت سيّدتنا!». لقد استطاع أن يدرك أنّها كانت ابنة المالكة عندما كانت قريبة منه وسمع صوتها. كانت تخاطب النادل. لقد رأى شيئًا من شفاهها الحمراء والضحكة التي كشفت عن الأسنان البيضاء وخُصل الشعر الداكنة الناعمة حول الصُدغين؛ لكن كلّ ما تبقّى كان حُلمًا ارتفعت فيه عاطفته كسحابة كثيفة أمام عينيه ومنعته من الرؤية بدقّة، أو معرفة ما فعله بالضبط. لاحظ أنّها رحبت به بانحناءة صغيرة فاتنة، وأن عينيها الكبيرتين الجميلتين كانتا موجهتين إلى عينيه مباشرة بدرجة ثاقبة، وأن العطر الذي تنبه له في الممر المظلم قد هاجم منخاريه مرة أخرى، وأنها كانت تنحني قليلاً تجاهه وتتكئ بيد واحدة على الطاولة في هذا الجانب. كانت قريبة جدًّا منه؛ وهذا هو الأمر الرئيس الذي لاحظه –موضّحًا أنّها كانت تسأل عن راحة ضيوف والدتها وأنها كانت تقدم نفسها في ذلك الوقت لآخر القادمين؛ ألا وهو نفسه.

سمع النادل يقول: «لقد كانت سيدتي هنا بالفعل منذ بضعة

أيام»... ثم أجابت بصوتها العذب كالغناء:

«آه، ولكن آمل ألا يتركنا السيد ويرحل الآن، أتمنى ذلك. إن والدتي مسنة جدًا حتى أنها لا يمكنها أن تعتني براحة ضيوفنا على نحو لائق، ولكنني موجودة هنا الآن وسأعالج كل ذلك». ثم ضحكت ضحكة عذبة. «لابد من العناية جيدًا بالسيد».

ناضل فيزين مشاعره ورغبته في أن يكون مهذّبًا، فنهض قليلًا كي يرى محدّثته الجميلة ثم أجاب متلعثمًا بشيء ما، ولكن عندما فعل ذلك، لمست يده بالصدفة يدها التي كانت موضوعة على الطاولة، وحينئذ انتقلت صدمة من جلدها إلى جسمه وكأنها صدمة كهربائية بحجم العالم كلّه. اضطربت نفسُه واهتزّت بعمق بداخله. لقد لفت انتباهه أنّ عينَيها كانتا مثبّتتين على عينيه بنظرة بها أقصى ما يمكن من إصرار، وفي اللحظة التالية أدرك أنه قد جلس صامتًا على كرسيّه مرة أخرى وأنّ الفتاة كانت بالفعل في منتصف الطريق عبر الغرفة، وأنّه كان يحاول تناول السلطة بملعقة وسكين حلوى.

مع اشتياقه إلى عودتها وخوفه من ذلك، تناول سريعًا ما تبقّى من عشائه، ثم توجّه في الحال إلى غرفة نومه لينفرد بأفكاره. كانت الممرّات هذه المرة مضاءة ولم يعان من أيّ

حوادث مثيرة، ومع ذلك كان الممرّ المتعرّج باهتًا بظلاله ويبدو أنّ الجزء الأخير من الجدران الملتوية وما بعده كان أطول مما كان يعتقد. لقد انحدر مثل الطريق على جانب الجبل، وبينما كان يسير على أطراف أصابعه شعر أنّه لا بدَّ وأنه سيقوده من قلب المنزل إلى غابة ضخمة. كان العالم يغنّي معه. امتلأت رأسه بخيالات غريبة، وبمجرّد وصوله إلى الغرفة، وبعد أن أغلق الباب بإحكام، لم يضئ الشموع، لكنّه جلس عند النافذة المفتوحة واستغرق تمامًا في التفكير، واحتشدت في ذهنه من تلقاء نف



4

إن هذا الجزء من القصّة الذي أخبر د.سايلنس به، دون تملّق خاصّ، حقيقيّ، ولكن مع الكثير من الارتباك والتلعثم. وقال إنّه لم يستطع قطّ أن يفهم كيف تمكّنت الفتاة من التأثير فيه بهذه الشدّة، حتّى قبل أن ينظر إليها. مجرّد أن تكون قريبة منه في الظلام كان كافيًا لإثارته. لم يكن يعرف شيئًا عن السحر، وكان بعيدًا سنوات عن أيّ شيء يقترب من العلاقات الرقيقة مع أيّ فرد من الجنس الآخر؛ لأنّه كان محبوسًا في صندوق الخجل، وقد أدرك عيوبه الساحقة جيدًا جدًا. بعد هذا جاءت إليه تلك المخلوقة الشابّة الساحرة بتروٍّ. كانت طريقتها واضحة لا لبس فيها، وسعت إليه في كلّ مناسبة ممكنة. كانت عفيفة ولطيفة بلا شكّ وكانت جذّابة حقًّا؛ وقد استمالته تمامًا من النظرة الأولى من عينيها اللامعتين، حتّى لو لم تكن قد فعلت ذلك في الظلام، بسحر وجودها غير المرئي.

تساءل الطبيب: «لقد شعرت أنها كانت مفيدة وصالحة. ألم يكن لديك أيّ ردّ فعل من أيّ نوع، كالقلق على سبيل المثال؟».

نظر فيزين بحدّة، وقد لاحت على وجهه واحدة من

ابتساماته الاعتذارية الفذّة. استغرق الأمر منه بعض الوقت قبل أن يجيب. إنّ مجرّد تذكُّره للمغامرة كان يخضب وجهه الخجول بالاحمرار، فتوجّهت عيناه البنيّتان إلى الأرض مرة أخرى قبل أن يجيب.

أوضح في الحال: «لا أظن أنه يمكنني قول ذلك تمامًا. لقد سلَّمت بصحة بعض الهواجس، ساهرًا في غرفتي بعد ذلك. نمت بداخلى قناعة بأنّ هناك شيئًا ما بخصوصها. كيف يمكنني التعبير عن هذا؟ حسنًا، شيء ما آثم. ليس ما أقصده هو الدنس بأيّ حال من الأحوال؛ جسديًّا أو عقليًّا، لكنّه شيء لا يمكن تحديده تمامًا وقد أعطاني إحساسًا غامضًا بالخدر. لقد اجتذبتني، وفي الوقت نفسه صدتني، أكثر من... من...».

تردّد واحمرّ خجلًا ولم يكن بمقدوره أن يُنهيَ الجملة.

اختتم حديثه بحَيرة يرثى لها: «لم يحدث لي شيئًا من هذا القبيل منذ ذلك الحين أو قبله. أفترض أنّه كان شيئًا ساحرًا، كما اقترحتَ أنت. على أيّ حال كان قويًّا بما يكفي ليجعلني أشعر أنّني سأمكث في تلك البلدة الصغيرة المسكونة المروعة، سنوات، لو كان بإمكاني أن أراها كلّ يوم وأسمع صوتها وأرى حركاتها الرائعة، وفي بعض الأحيان، ربما ألمس يدها».

سأله جون سايلنس وهو ينظر عمدًا في كلّ الأماكن إلا الراوي نفسه: «هل تستطيع أن تشرح لي ما شعرت أنه يشكّل مصدر قوّتها؟».

أجاب فيزين بأقصى درجة من الوقار: «إنّني دهش من أن تسألني مثل هذا السؤال! أظن أنّه لا يمكن لإنسان أن يصف لآخر على نحو مقنع أين يكمن سحر المرأة التي يقع في شِركها. بالتأكيد لا أستطيع ذلك. كل ما أستطيع أن أقوله هو أن هذه الفتاة النحيفة قد سحرتني، وأن مجرد إدراكي لأنها تعيش وتنام في المنزل ذاته قد ملأني بإحساس بالسعادة غير عادي».

استمر في التحدّث بجدّية وعيناه متوهّجتان: «ولكن هناك شيء واحد يمكنني أن أخبرك به. وهو أنّها على ما يبدو كانت تجمع في نفسها جميع القوى الخفية الغريبة التي كانت تعمل بشكل غامض في المدينة وسكّانها. كان تتميّز بحركات النمر الناعمة، وتسير بسلاسة وصمت جيئة وذهابًا وبالأساليب ذاتها غير المباشرة مثل سكّان المدينة، وتقوم بفحص أهدافها السرية مثلهم؛ تلك الأهداف التي كنت متيقنًا من أنّني واحد منها. لقد أبقتني تحت الملاحظة المستمرة وأنا في حالة من الرعب والسرور، ومع ذلك بلا مبالاة وبكثافة، حتى إنّه لو

وُجِد شخص آخر أقلّ حساسية، إذا جاز لي أن أقول ذلك -أو ما مستهجنًا- أو أقل استعدادًا لما حدث معي فيما قبل، فما كان من الممكن أبدًا أن يلاحظ ذلك. كانت هادئة وساكنة دائمًا، ومع ذلك بدت أنها في كل مكان في ذات الوقت، حتى أنني لم أتمكن مطلقًا من الفرار منها. كنت أجد باستمرار التحديق والضحك في عينيها الكبيرتين في زوايا الغرف وفي الممرات، وكانت تنظر إليَّ بهدوء عبر النوافذ أو في أكثر أجزاء الشوارع العامة ازدحامًا».

يبدو أن العلاقة الحميمة بينهما نمت بسرعة كبيرة بعد هذا اللقاء الأول الذي أربك توازن الرجل الضئيل بعنف. لقد كان شخصًا متزمتًا في المقام الأول مثل أولئك الأشخاص المتزمتين الذين يعيشون في عالم صغير، لدرجة أن أي شيء غير عادي قد يهزهم ويستنزفهم، ومن ثَم فإنهم يرتابون بشكل غريزي من أي شيء شاذّ، لكن فيزين بدأ ينسى تكلُّفه بعد مدة قصيرة. كانت الفتاة تتصرّف دائمًا بشكل متواضع، وباعتبارها ممثّلة لأمها، فقد كان عليها بطبيعة الحال أن تكون كذلك مع الضيوف في الفندق. لم يكن الأمر بعيدًا عن روح الصداقة الحميمة. بالإضافة إلى ذلك، فقد كانت صغيرة وجميلة بدرجة ساحرة وكانت فرنسية ومن الواضح أنها كانت تحبه.

في الوقت ذاته كان هناك شيء ما لا يمكن وصفه؛ أجواء معينة لا يمكن تحديدها من أماكن وأوقات أخرى، جعلته يحاول جاهدًا أن يبقى حذرًا، وأحيانًا جعلته يحبس أنفاسه مع وثبة مفاجئة. كان كل ذلك يشبه حلم هذياني، مبهج ومفزع إلى حد ما، ولقد ائتمن سرًا د.سايلنس هامسًا له؛ وأكثر من مرة لم يكن يعرف ما يفعله أو يقوله تمامًا، كما لو كان مدفوعًا إلى الأمام بدوافع بالكاد يمكنه التعرّف عليها.

وعلى أنّ فكرة الرحيل نفسها خطرت على باله مرارًا وتكرارًا، إلا أنّها كانت في كلّ مرة أقلّ حدّة، حتّى إنه أصبح يومًا بعد يوم جزءًا من تلك الحياة الناعسة لتلك البلدة التي من العصور الوسطى، فاقدًا الكثير والكثير من شخصيته المعروفة. سرعان ما شعر أنّ الحجاب الذي بداخله ينقشع بسرعة مخيفة، وربّما قد وجد نفسه فجأة مندمجًا في الأهداف السرية للحياة الخفية التي تكمن وراء كلّ ذلك. كان يتحوّل إلى كائن مختلف تمامًا بحلول ذلك الوقت وحسب.

في الوقت نفسه، لاحظ عدة علامات صغيرة كانت تهدف إلى أن تجعل إقامته جذّابة بالنسبة له: زهور في غرفة نومه ومقعد مريح بمساند بدرجة أكبر موجود في الزاوية، بل وأيضًا

أطباق صغيرة إضافية على طاولته الخاصّة في غرفة الطعام. أصبحت محادثات الآنسة «أليس» كذلك متكرّرة وممتعة أكثر. مع أن هذه المحادثات نادرًا ما كانت تتخطّى موضوع الطقس، أو تفاصيل المدينة -فقد لاحظ أن الفتاة لم تكن في عجلة من أمرها كي تنهي الأمر، وغالبًا ما كانت تُدخل جملًا قليلة غريبة، لم يفهمها قطّ بشكل صحيح- إلا أنه شعر بأنها مهمّة.

كانت هذه التصريحات الطائشة المليئة بالمعانى التي تفلت منه، هي التي أشارت إلى غرض ما خفي من جانبها وجعلته يشعر بعدم الارتياح. لقد تأكّد من أنّهم كانوا جميعًا عليهم القيام بذلك كي يُبقوه في المدينة إلى أجل غير مسمّى.

همست بهدوء في أذنه: «أو لم يتوصّل سيدي إلى قرار بعد؟» وكانت جالسة بجانبه في الفناء المشمس قبل العشاء، وقد حدث تقدّم سريع في التعارف بينهما. «لأنه، إذا كان الأمر صعبًا للغاية، علينا جميعًا أن نقدّم يد العون!».

لقد روَّعه السؤال، وجاء متماشيًا مع أفكاره الخاصّة. لقد تحدّثت وهي تضحك ضحكة جميلة، وكان هناك القليل من الشعر المتناثر على إحدى عينيها عندما التفتت وحدّقت فيه بمكر. من الممكن أنه لم يفهم اللغة الفرنسية إلى حدّ ما. لأنّ

وجودها القريب منه أربك دائمًا معرفته القليلة باللغة بشكل مؤلم. ومع ذلك فقد أخافته كلماتها وأسلوبها وشيء ما آخر كان يكمن خلف ذلك في عقلها. لقد منحه كل ذلك شعورًا بأن المدينة كانت تنتظر منه أن يتخذ قرارًا في أمر ما هام.

في ذات الوقت، فتنه صوتها، وحقيقة أنها كانت هناك بالقرب من جواره في ثوبها الداكن اللين، بما يفوق الوصف.

أجاب متلعثمًا وقد تاه بلذّة في أعماق عينيها: «حقًا، أنّني أجد صعوبة في الرحيل وخاصّة في ذلك الوقت الذي جاءت فيه الأنسة أليس».

لقد دهش من نجاح ما قاله، وكان سعيدًا جدًّا بتودّده المتواضع للنساء الذي أحرزه. ولكن في الوقت نفسه لم يكن بإمكانه منع لسانه من قول ذلك.

فقالت متجاهلة ذلك الثناء: «ومع ذلك فإمّا أنّك تحبّ بلدتنا الصغيرة، أو أنك لن تكون سعيدًا بالبقاء».

صرخ، شاعرًا أنّ لسانه يفلت بطريقة ما خارج نطاق سيطرة دماغه: «لقد افتتنت بالمدينة وبكِ». وكان على وشك أن يقول أشياء أخرى جامحة، عندما نهضت الفتاة من على مقعدها بجانبه وذهبت.

صاحت وهي تضحك منه في ضوء الشمس: «اليوم نعد حساء بالبصل، وعليَّ أن أذهب للإشراف على ذلك وإلا فلن يستمتع سيدي بعشائه، كما تعلمون، وبعد ذلك ربّما يتركنا!».

لقد شاهدها وهي تَعبُر الفناء، وتتحرّك بكلّ جمال وخفّة، مرتدية ثوبَها الأسودَ المتواضع، مثل نوع من الفرو اللين تمامًا. التفتت مرة واحدة لتضحك له من الشرفة ذات الباب الزجاجي، ثم توقّفت لحظة للتحدّث إلى والدتها، التي جلست للحياكة كعادتها في مقعدها عند الزاوية مباشرة داخل قاعة الانتظار.

ولكن كيف حدث إذن، عندما سقطت عينه على هذه المرأة البشعة، أن ظهر كلاهما فجأة وكأنّهما شخصان مختلفان عمّا كانا عليه؟ من أين جاء هذا التحوّل في الكرامة والشعور بالقوة التي طغت عليهما وكأنه سحر؟ ماذا حدث لتلك المرأة الضخمة التي جعلتها الفتاة تبدو من فورها مهيبة، ووضعتها على عرش في مشهد مظلم ومُخيف، تمسك بصولجان فوق الوهج الأحمر للعربدة الهائجة؟ ولماذا هذه الفتاة المراهقة النحيلة، الرشيقة كصفصاف، الصغيرة كنمر، حملت فجأة طابعًا من الجلالة الشريرة، وبدا الدخان واللهب والدخان يتحرّكان حول رأسها، وظلام الليل تحت قدميها؟

كتم فيزين أنفاسه وجلس هناك مشلولًا في مكانه. حينئذٍ وفي الوقت ذاته الذي ظهرت فيه تلك الفكرة الغريبة، اختفت مرة أخرى، وقد تسلط عليهما ضوء الشمس، ثم سمع ضحكتها لأمّها عن حساء البصل، ورآها وهي تلتفت للوراء وتلقي بنظرة سريعة عليه من فوق كتفها الصغير العزيز بابتسامة جعلته يفكّر في قبلة ندية تطوقه قبل الأجواء الصيفية.

في الواقع، كان حساء البصل ممتازًا وبخاصة في ذلك اليوم، لأنه رأى غطاءً آخر موضوعًا على طاولته الصغيرة، وبقلبٍ خافق، سمع همهمة النادل موضحًا أنّ «الآنسة أليس ستدعو السيّد على العشاء على شرفها، كما هي عادتها في بعض الأحيان مع ضيوف والدتها».

وبالفعل جلست بجانبه طوال تلك الوجبة اللذيذة، وتحدثت معه بهدوء بلغة فرنسية سهلة، وقد لاحظ أنّها كانت تعتني به جيّدًا، فقامت بخلط صلصة السلطة بل حتّى مساعدته في الطعام بيدها. وفي وقت لاحق بعد الظهر، وبينما كان يدخن في الفناء، ويتوق إلى رؤيتها فور انتهاء أعمالها، جاءت مرة أخرى إلى جانبه... وعندما نهض كي يستقبلها، وقفت أمامه للحظة، مليئة بالخجل المربك العذب قبل أن تتحدث:

«تظن والدتي أنه يجب عليك التعرف على المزيد من الأماكن الجميلة في بلدتنا الصغيرة، وأنا أيضًا أظن ذلك! هل يرغب سيدي في أن أكون مرشدة له؟ يمكنني أن أريه كل شيء، لأن عائلتنا عاشت هنا لأجيال كثيرة».

أخذته بيدها قبل أن يتمكن من العثور على كلمة واحدة للتعبير عن سعادته، وقادته إلى الشارع دون مقاومة منه، ومع ذلك بدا أنها تفعل ذلك بطريقة طبيعية تمامًا، وبدون أدنى إشارة إلى تجاسر أو وقاحة. توهج وجهها بالسعادة والاهتمام بالأمر، ولقد بدت بثوبها القصير وشعرها المتدرج طفلة في السابعة عشر من عمرها، بريئة ومرحة، فخورة ببلدتها الأم، تعيش فيما وراء سنوات عمرها بإحساس الجمال القديم لبلدتها.

سارا معًا في البلدة، وقد أرته ما عدّته من اهتماماتها الرئيسية: المنزل القديم المتصدع الذي كان يعيش فيه أجدادها؛ القصر الكئيب ذا المظهر الأرستقراطي حيث سكنت عائلة والدتها منذ قرون، ومكان السوق القديم حيث تم إحراق الساحرات فيه بالعشرات منذ مئات السنين. كان حديثها عن كل شيء مفعم بالحيوية ولم يفهم منه الكثير لأنه كان يسير متثاقلًا

بجانبها، ويلعن الخمسة والأربعين عامًا التي مرت من حياته، شاعرًا بكلّ اللهفة التي في رجولته المبكّرة وهي تنشط وتطلق صرخاتها بداخله. عندما تحدّثت، بدا أنّ إنجلترا وسوربيتون بعيدتين للغاية، في عصر آخر من تاريخ العالم. لمس صوتها شيئًا قديمًا فيه لا يمكن قياسه، شيء ما كان نائمًا بعمق وقام بتهدئة الأجزاء السطحية من وعيه، مما سمح لما هو أكثر قدمًا أن يستيقظ. ومثل البلدة، التي تتظاهر بحياة حديثة نشطة، أصبحت الطبقات العلوية من كينونته بليدة ساكنة، وبدأ شيء ما يكمن في لاوعيه ينشط في نومه. لقد بدأ ذلك الستار الكبير يتأرجح قليلًا جيئة وذهابا. وقد يُرفع الستار تمامًا في الوقت الحاضر...

أخيرًا بدأ يفهم الأمر بشكل أفضل إلى حد ما. كان الطابع العام للبلدة ينتشر في داخله. وبما يتناسب مع طبيعته الخارجية العادية التي أصبحت صامتة، فإن تلك الحياة السرية الداخلية، التي كانت أكثر واقعية وحيوية، أكدت نفسها. وكانت هذه الفتاة بالتأكيد هي الكاهنة العليا لكلّ هذه الأشياء، والأداة الرئيسة لإنجازها. تدفّقت في ذهنه أفكار جديدة مع تفسيرات جديدة عندما كانت تسير بجانبه في الشوارع المتعرّجة، بينما كانت المدينة ذات الجملونات القديمة الخلّابة، ذات الألوان

الناعمة عند غروب الشمس، لم تظهر له قطّ بمثل هذا الشكل الرائع والمغري تمامًا.

حدثت حادثة غريبة واحدة فقط أربكته وأزعجته. كانت طفيفة في حدّ ذاتها، لكن لا يمكن تفسيرها تمامًا، وقد جلبت الرعب لوجه الفتاة الطفولي وكذلك صرخة على شفتيها الضاحكتين. كان قد أشار فقط إلى عمود من الدخان الأزرق الذي ارتفع من أوراق الخريف المحترقة وصنع صورة في مقابل الأسطح الحمراء، ثم ركض صوب الجدار ودعاها إلى جانبه لمشاهدة النيران وهي تندفع هنا وهناك عبر أكوام من القمامة. عندما رأت ذلك، بدا كما لو أنها أُخذت على غرة، تغيّر وجهها بشكل مخيف وركضت مثل الريح، ووجهت له جملا عنيفة أثناء ركضها، لم يفهم منها كلمة واحدة باستثناء أن النار قد أخافتها على ما يبدو وأرادت الابتعاد عنها بسرعة وكذلك إبعاده.

بعد خمس دقائق أصبحت هادئة وسعيدة مرة أخرى كما لو أن شيئًا لم يحدث، أو أقلقها أو أيقظ أفكارًا مضطربة بداخلها، وقد نسيا كلاهما الحادث.

كانا يميلان معًا فوق الأسوار المهدّمة، يستمعان إلى

الموسيقى الغريبة للفرقة كما سمعها في اليوم الأول من وصوله. لقد أثارته بعمق مرة أخرى كما حدث من قبل، وبطريقة ما تمكّن من لسانه وتحدّث بأفضل ما عنده من الفرنسية. انحنت الفتاة عبر الحجارة القريبة منه. لم يكن هناك أحد. شيء ما داخلي بدأ يسيطر عليه دون رحمة. بدأ يتلعثم قائلًا شيئًا ما لا يعرف معناه، مُبديًا إعجابه الغريب بها. عند أول كلمة تقريبًا، انطلقت برفق بعيدًا عن الحائط، واقتربت منه وهي تبتسم، ولمست ركبتيه وهو جالس هناك. كانت بلا قبعة كالمعتاد، ويبدو شعرها ساحرًا في ضوء الشمس الذي كان يضيء كذلك جانبًا من خدّها ورقبتها.

قالت بلهفة، وكانت تربّت بيديها برفق على وجهه: «آه، أنا سعيدة للغاية! سعيدة جدًّا جدًّا لأنّ هذا يعني أنك إن شعرت بالإعجاب بي فعليك أن تُعجب بما أفعل وبما أنتمي إليه».

تأسّف جدًّا على فقدانه السيطرة على نفسه. اقشعرّ من شيء ما في طريقة تعبيرها. بدأ يختبر الخوف الذي ينجم عن الخوض في بحر مجهول وخطير.

أضافت برفق، مع طريقة لطيفة لا توصف، وكأنّها لاحظت انكماشه: «ستشارك في حياتنا الحقيقية. ستعود إلينا».

بدا أنّ هذه الزلّة الطفولية تسيطر عليه بالفعل. شعر بقوّتها تطغى عليه أكثر فأكثر. انبثق منها شيءٌ ما، خطف حواسّه وجعله يدرك أنّ شخصيّتها كانت تحتفظ بقوى جليلة ومهيبة على الرغم من سذاجتها. رآها تتحرّك مرة أخرى عبر الدخان واللهب وسط منظر عاصف ومخيف جدًّا، وكأن والدتها المرعبة بجانبها. بان هذا إلى حدّ ما انطلاقا من ابتسامتها ومظهرها البريء الفاتن.

كرّرت كلامها مسيطرة عليه بعينيها: «أعرف أنك ستفعل ذلك».

لقد كانا وحدهما هناك على الأسوار، وقد تحركت بداخله شهوة شديدة لشعوره بأنها كانت تسيطر عليه. جذبه بشدة ذلك التهتّك المختلط بالتحفّظ الموجود فيها، وثار كلّ ما فيه من رجولة، وقاوم نفوذها الزاحف عليه، وفي الوقت نفسه أشاد به بفرحة كبيرة من قِبل شبابه المنسيّ. جاءته رغبة لا تقاوم لسؤالها، لاستدعاء ما تبقّى له من شخصيّته في محاولة للاحتفاظ بالحقّ الطبيعيّ في نفسه.

هدأت الفتاة مرة أخرى، وكانت في ذلك الوقت متّكأة على الجدار العريض بالقرب منه، محدّقة في السهل المظلم،

ومرفقاها على حافّة السور بلا حراك، كشكل منحوت في الحجر. استجمع شجاعته.

قال لها، مقلّدًا نعومة صوتِها دون أن يعيَ ذلك: «أخبريني يا أليس»، وكان مدركًا تمامًا أنّه جادّ: «ما الهدف الذي تسعى إليه هذه البلدة، وما هذه الحياة الحقيقية التي تتحدّثين عنها؟ ولماذا يراقبني الناس من الصباح إلى الليل؟ أخبريني ماذا يعني كلّ ذلك؟»... ثم أضاف بسرعة وشابت العاطفة صوته: «وأنتِ نفسُك، من أنتِ حقًّا؟».

أدارت رأسها ونظرت إليه عبر جفون نصف مغلقة، وقد فضح انفعالها الداخلي المتزايد نفسه من خلال اللون الباهت الذي كان يسري كالظلّ على وجهها.

تلعثم بشكل غريب تحت تأثير نظرتها: «يبدو أنّ لديّ بعضَ الحقّ كي أعرف...».

فجأة فتحت عينيها تمامًا وسألته بهدوء: «إذن، هل تحبّني؟».

صاح بعَجَلة، يشبه تأثّره من قوة حركة المدّ والجذر: «أقسم إنني لم أشعر مطلقًا من قبل... لم أعرف قطّ أيّ فتاة أخرى قد...».

قاطعت اعترافه المشوش بهدوء: «إذن، لك الحقُّ في أن تعرف؛ لأنّ في الحبّ تتشاركُ كلَّ الأسرار».

توقّفت مؤقّتًا، وقد سرت فيه إثارة كالنار. لقد رفعته كلماتها عن الأرض، وشعر بسعادة شديدة، تبعتها فكرة الموت في اللحظة ذاتها تقريبًا، في تباين رهيب. أدرك أنّها حوَّلت عينيها إلى عينيه وكانت تتحدّث مرة أخرى.

همست: «إنّ الحياة الحقيقية التي أتحدّث عنها هي الحياة القديمة، القديمة؛ إنّها الحياة التي كانت موجودة منذ مدة طويلة، الحياة التي كنت أنت أيضًا تنتمي إليها في وقت من الأوقات، ولا تزال تنتمي إليها».

اضطربت أعماقه من سيل من الذكريات الباهتة عندما نفذ صوتها المنخفض داخله. كان يعرف بشكل غريزي أنّ ما تقوله صحيح، مع أنّه لم يستطع فهم مغزاه كاملًا. بدت حياته الحالية تبتعد عنه عندما كان يصغي إليها منغمسًا بشخصيته في شخصية أخرى أقدم وأعظم كثيرًا. إنّ فقدانه لنفسه الحالية هو الذي جعله يفكّر في الموت.

استمرّت قائلة: «لقد أتيت إلى هنا بهدف البحث عن ذلك، وقد شعر الناس بحضورك وينتظرون ما سوف تقرره... ما إذا

كنت ستتركهم دون العثور عليه، أم...».

ظلّت عيناها ثابتتين على عينيه، لكنّ بدأ وجهها يتغيّر، حيث أصبح أكبر وأكثر إظلامًا مع تعبير يشي بتقدّم العمر.

«إنّ أفكارهم التي تنشط باستمرار حولك هي التي تجعلك تشعر أنّهم يراقبونك. إنّهم لا يراقبونك بأعينهم. إن مقاصد حياتهم الداخلية هي التي تناديك، وتسعى إلى المطالبة بك. لقد كنت جزءًا من الحياة ذاتها، منذ زمن طويل جدًّا والآن يريدونك مرة أخرى أن تعود إليهم».

غاص قلب فيزين الجبان في الفزع بينما كان يستمع إليها، لكن عينَي الفتاة قد أبقتاه في أحبولة من الفرح بحيث لم تكن لديه رغبة في الهروب. لقد فتنته، فقد كان يخرج خارج ذاته الطبيعية.

استأنفت حديثها قائلة: «مع ذلك، لم يكن من الممكن أن يستحوذ الناس عليك. لم يكن الحافز قويًّا بما فيه الكفاية. لقد تلاشى طوال كلّ هذه السنوات. لكنّني...»، وهنا توقّفت لحظة ونظرت إليه بعينيها الساطعتين في ثقة تامّة: «إنّني أملك السحر الذي يمكنني من السيطرة والاستحواذ عليك؛ تعويذة الحبّ القديم. يمكنني الفوز بك مرة أخرى وجعلك تعيش

تلك الحياة القديمة معي، لأنّ قوة الرابطة القديمة التي بيننا -إن اخترت أن أستخدمها- لا تُقاوَم. وأنا أختار ذلك. ما زلت أريدك. وأنت، يا عزيزي، يا ماضيّ الباهت...» واقتربت منه حتّى مرّت أنفاسها عبر عينيه وبدأ صوتُها يغنّي... «أنتوي الاستحواذ عليك لأنّك تحبّني وتحت رحمتي تمامًا».

سمع فيزين ولم يسمع. فهم ولم يفهم. لقد دخل في حالة من الغبطة. كان العالم تحت قدمَيه، مصنوعًا من الموسيقى والزهور، وكان يطير في مكان ما عاليًا شاعرًا ببهجة خالصة. كان يلهث، مصابًا بالدوار، متعجّبًا من كلماتها. لقد أسكرته كلماتها. ومع ذلك فإنّ الرعب من كلّ شيء، وفكرة الموت الرهيبة، كانت تكمن خلف كلماتها، وتناثرت كاللهب من صوتها، مطلقة دخانًا أسود يلطّخ روحه.

تواصلا بعضهما مع بعض، كما بدا له، انطلاقا من عملية التخاطر السريع لأنه لم يكن لديه من الفرنسية ما يمكنها أن تستوعب كلّ ما قاله لها. ومع ذلك فقد فهمته تمامًا، وما قالته له كان مثل تلاوة آيات معروفة منذ زمن طويل. وكان الألم الممتزج بالحلاوة أثناء إصغائه لها أكثر ممّا كان من الممكن أن تحتملَه نفسه الصغيرة.

سمع نفسَه يقول: «ومع ذلك فقد أتيت إلى هنا مصادفة تمامًا...».

صاحت بشغف: «لا، لقد أتيت إلى هنا لأنّني استدعيتك. لقد استدعيتك سنوات، وجئت بكلّ قوة الماضي من خلفك. كان عليك أن تأتي لأنّني أملكك وأدعوك».

نهضتْ مرة أخرى واقتربت منه أكثر ونظرت إليه، وبدا على وجهها نوع من العجرفة؛ عجرفة القوة.

غربت الشمس خلف أبراج الكاتدرائية القديمة وتصاعد الظلام من السهل وغطّاها. توقّفت موسيقى الفرقة، وسكنت أوراق أشجار السهل بلا حراك، ولكنّ برودة مساء الخريف تسلّلت إليهما وجعلت فيزين يرتجف. لم يكن هناك صوت سوى صوتهما والهفهفة الناعمة لثيابها. استطاع سماع الدم يندفع في أذنيه. نادرًا ما كان يدرك أين كان أو ما كان يفعله. لقد جذبه سحرُ الخيال المريع بعمق إلى مقابر كيانه، وأخبره بصوت ثابت أنّ كلماتِها كانت تعكس الحقيقة، وأنّ هذه الفتاة الفرنسية الغرة الصغيرة التي كانت تتحدّث بجانبه بسلطة غريبة تتحوّل إلى كائن آخرَ تمامًا. وعندما حدَّق في عينيها، نمت وتوهّجت الصورة الموجودة في ذهنه، واكتست في

رؤياه الداخلية بدرجة حيوية من الواقعية لزامًا أن يعترف بها. لقد حدث ذات مرة من قبل، أنّه رآها طويلة القامة وجليلة تتحرّك عبر الغابات البرية باهتة المنظر والكهوف الجبلية، ووهج النيران خلفها وسحب من الدخان حول قدميها. تطوق أوراق الشجر الداكنة شعرها وتطير بسلاسة في مهبّ الريح وقد ظهرت أطرافها انطلاقًا من أسمالها البالية. كان الآخرون حولها أيضًا، وكانت عيونهم المتحمّسة تلقي بنظرات مهتاجة عليها من جميع الجوانب، لكنّ عينيها كانتا دائمًا مثبتتين على شخص واحد فقط، إنّه ذلك الذي كانت ممسكة بيديه. لأنّها كانت تقودُ الرقص بطريقة خليعة على أنغام موسيقى الإنشاد، وكانت رقصتها دورانًا حول كيان عظيم ومريع على عرشه، يلوح في وسط المشهد عبر أبخرة متوهّجة، بينما كانت هناك أعداد لا تُحصى من الوجوه والأشكال الوحشية التي تجمّعت حولها في الرقص بطريقة هائجة، لكنّه كان يعلم أنّ الشخص الذي كانت تمسكه بيدها هو نفسه وقد عرف أنّ الشكل الفظيع الموجود على العرش هو والدتها.

بزغت الرؤية بداخله، مندفعة إليه عبر سنوات طويلة توارت، تصرخ بصوت عالٍ مع صوت الذاكرة التي استيقظت مرة أخرى، ثم تلاشى ذلك المشهد ورأى الدائرة الواضحة

لعيني الفتاة تحدّق بثبات في عينيه، وأصبحت مرة أخرى الابنة الصغيرة الجميلة لصاحبة النزل واستردّ صوته مرة أخرى.

همس مرتجفًا: «وأنتِ... إنك طفلة الرؤى والسحر، كيف تمكّنتِ من غوايتي حتّى إنّي أحببتك من قبل أن أراكِ؟».

اقتربت منه بعزّة نفس نادرة.

قالت: «نداء الماضي»، ثم أضافت بفخر: «وإلى جانب ذلك فأنا أميرة حقًا...».

صاح: «أميرة؟!».



قالت: «ووالدتي ملكة».

حينئذٍ فقد فيزين تسلسل أفكاره. لقد اخترقت البهجة قلبه وجرفته في نشوة تامّة. إنّ سماعه ذلك الصوت الحلو المغرّد، ورؤيته لتلك الشفتَين الفاتنتَين اللتَين تُخرجان مثل تلك الأشياء، أربك توازنه دون أيّ أمل في التحكّم فيه. أخذها بين ذراعيه وانهال على وجهها المستسلم بالقبلات.

لكنّه حتّى عندما فعل ذلك، واكتسحته عاطفة مشبوبة، شعر أنّها كانت فاترة العاطفة لدرجة تعوفها النفس، وأنّ قبلاتها له قد

لطّخت روحه. وعندما حرَّرت نفسها منه في الحال وتلاشت في الظلام، وقف هناك مستندًا على الجدار في حالة انهيار، مقشعرًا مرتعبًا من لمس جسدها الخاضع مغتاظًا من داخله من ضعفه الذي كان السبب في تدميره.

ومن بين ظلال المباني القديمة التي اختفت فيها، ارتفعت في صمت الليل صرخة طويلة الأمد، التي أخذها في البداية على محمل من الضحك، لكنّه في وقت لاحق كان متأكّدًا من أنه تعرف على ذلك الصوت بأنه في الغالب عواء إنساني لقطّة.

5

استند فيزين وقتًا طويلًا قبالة الحائط بمفرده، بأفكاره وعواطفه المتلاطمة. لقد فهم أخيرًا أنّه قد فعل الشيء الوحيد الضروري كي يستدعيَ لنفسه القوّة الكاملة لماضيه القديم. لأنّه في تلك القُبُلات العاطفية كان قد سلَّم بصحّة رباط الأيام القديمة وأنعشها. عادت إليه برجفة ذاكرة تلك المداعبة الناعمة غير المحسوسة، مع رجفة، في الظلام في رواق النزل. لقد سيطرت عليه الفتاة أولًا، ثم قادته إلى الفعل الوحيد الذي كان ضروريًا لهدفها. كان قد تمّ التربّصُ به، بعد انقضاء قرون من الزمان وتمّ الإمساك به وإخضاعه.

لقد أدرك هذا على نحو غامض، وسعى إلى وضع خطط لهروبه. ولكنّه، في ذلك الوقت، كان عاجزًا عن إدارة أفكاره أو إرادته، لأنّ جنون المغامرة اللطيف قد سيطر على ذهنه سيطرة تعويذة، وكان مفتونًا بشعوره أنه مسحور تمامًا ويتحرّك في عالم أكبرَ بكثير وأكثر جموحًا من ذلك الذي اعتاد عليه.

عندما نهض في النهاية كي يغادر، كان القمر الذي كان باهتًا وضخمًا، يرتفع فوق السهل الذي يشبه البحر. اجتذبت أشعّته

المائلة جميع المنازل إلى منظرٍ جديد، حتّى إنّ أسطحها التي كانت تتلألأ بالفعل مع الندى كانت تبدو كأنّها ترتفع عاليًا في السماء بدرجة أكبر من المعتاد، وكانت جملوناتها وأبراجها القديمة الغريبة تلوح بعيدًا بلون أرجواني.

بدت الكاتدرائية وكأنّها غير حقيقية في ضباب فضّي. تحرّك بهدوء، ملتزمًا بالظلال. لكنّ الشوارع كانت جميعها مهجورة وصامتة جدًّا. كانت الأبواب مغلقة ومصاريع النوافذ محكمة الإغلاق. لم يكن هناك أي كائن مستيقظ. كان سكون الليل يكمن في كلّ شيء. لقد بدت كأنّها مدينة موتى أو فناء كنيسة به أضرحة غريبة وعملاقة. كان يتساءل، أين اختفت كلّ تلك الحياة المزدحمة في هذا اليوم تمامًا عندما شقّ طريقه لباب خلفيّ يؤدّي إلى النزل عن طريق الإسطبلات، وكان يفكّر في الوصول إلى غرفته دون أن يلاحظه أحد. وصل إلى الفناء بأمان وعبره عن طريق البقاء على مقربة من ظلّ الجدار. انحرف جانبيًّا ومشى على أطراف أصابعه، تمامًا كما فعل المسنّون عندما دخلوا غرفة الطعام. لقد شعر بالرعب عندما وجد نفسه يفعل ذلك غريزيًّا. اجتاحته حركة غريبة –حيث أمسكت به بطريقة ما من مركز جسده– حركة جعلته يحبو على أطرافه الأربعة ويركض بسرعة وبصمت. ألقى بنظره لأعلى،

وخطرت بباله فكرة القفز فوق حافّة نافذته بدلاً من الصعود عبر الدرج. بدا له ذلك أنّه الطريقة الأسهل والأكثر طبيعية. بدا هذا وكأنه بداية تحوّل ما رهيب في نفسه إلى شيء ما آخر. لقد كان مأسورًا بالخوف.

كان القمر عاليًا في ذلك الوقت، والظلال مظلمة للغاية على طول جانبي الشارع حيث انتقل. لقد سار في أكثر الظلال ظلمة ووصل إلى الشرفة ذات الأبواب الزجاجية.

في ذلك الوقت كان هناك ضوء، لسوء الحظّ كان النزلاء على مقربة منه. كان يأمل في التسلّل عبر القاعة دون أن يلاحظه أحد ويصل إلى الدرج. فتح الباب بحذر وانسلّ منه. ثم رأى أنّ القاعة لم تكن خالية. كان هناك شيء ضخم قاتم موضوعًا قبالة الحائط على يساره. في البداية ظن أنّها أدوات منزلية. ثم تحرّك، لذا ظن أنّها كانت قطّة ضخمة، مشوّهة بطريقة ما بسبب تلاعب الضوء والظلّ. بعد ذلك نهضت بشكل مستقيم أمامه ورأى أنّها صاحبة النزل.

لقد تمكّن فقط من التجرّؤ على التخمين المخيف بخصوص ما كانت تفعله في هذا الوضع، ولكن في اللحظة التي وقفت فيها وواجهته كان على دراية بالمهابة المخيفة التي

استعاد تذكّرها من كلام الفتاة الغريب بأنّها كانت ملكة. وقفت بمفردها معه بهيئة شريرة وضخمة، أسفل المصباح الزيتيّ الصغير في القاعة الفارغة. ثار الرعب في قلبه، وجذور خوف ما قديم. لقد شعر أنّه يجب أن ينحنيَ لها ويصنع لها نوعًا من الإجلال. كان الدافع قويًّا ولا يقاوم وكأنّه عادة قديمة. نظر حوله سريعًا. لم يكن هناك أحد. حينئذٍ أمال رأسه بتروّ تجاهها وانحنى.

«وأخيرًا اتخذت قرارك يا سيدي. هذا جيد. أنا سعيدة بذلك». كان صدى كلماتها يصله وكأنّه في مساحة كبيرة مفتوحة.

فجأة جاءت إليه الشخصية العظيمة فجأة عبر القاعة الممهّدة وأمسكت بيديه المرتجفتَين. تحرّكت معها قوة ما طاغية واستولت عليه.

«يمكننا القيام بجولة صغيرة معًا، أليس كذلك؟ نحن ذاهبون إلى هناك هذه الليلة، وعلينا التدرب قليلًا على ذلك. أليس... أليس... تعالي هنا. تعالي بسرعة!».

دارت حوله بسرعة بخطوات واسعة برقصة ما بدت مألوفة بشكل غريب ومرعب. لم يُصدر هذان الاثنان الغريبان أيّ

صوت على الحجارة. كان كلّ شيء ناعمًا وخفيًّا. وفي ذلك الوقت -عندما بدا أنّ الهواءَ يتكثّف كالدخان، ومرق أثناءه وهجٌ أحمرُ كما لو أنّه لهبٌ- أدرك أنّ شخصًا ما آخر قد انضمّ إليهما، وأنّ يده التي أطلقتها الأمّ أصبحت الآن ممسوكة بإحكام من قِبل الابنة. أتت أليس استجابة للنداء ورآها بأوراق نبات رعي الحمام المجدولة في شعرها الداكن، مرتدية ثياب رثة غريبة، جميلة مثل الليل، مغرية بدرجة شديدة وكريهة أيضًا.

صاحوا: «حتّى يوم السبت! حتّى يوم السبت! إلى سبت الساحرات!

رقصوا صعودًا وهبوطًا في تلك القاعة الضيّقة، وكانت المرأتان على جانبيه في أقصى جموح كان يتخيّله، ومع ذلك كان يتذكر ذلك على نحو ضعيف ومخيف، حتّى تأرجح المصباح الموجود على الحائط وانطفأ، وخيَّم الظلام التام. استيقظ الشيطان في قلبه بألف من الاقتراحات الدنيئة وجعله خائفًا.

فجأة أطلقوا يديه، فسمع صوت الأم تصيح قائلة إنّ الوقت قد حان، ويتوجّب عليهما الانصراف. لم ير في أيّ طريق ذهبا. لقد أدرك فقط أنّه كان حرًّا، فتخبّط في الظلام حتّى عثر على

السلالم واندفع سريعًا أثناءها إلى غرفته كما لو كان الجحيم كلّه يتعقّبه.

ألقى بنفسه على الأريكة، ووضع وجهه بين يديه وتأوّه. بعد مراجعة طرق كثيرة بسرعة للهروب الفوري، وكانت كلّها مستحيلة، قرّر أخيرًا أنّ الشيء الوحيد الذي يجب فعله في الوقت الحالي هو أن يهدأ وينتظر. يجب أن يرى ما الذي سيحدث. على الأقلّ سيكون آمنًا إلى حدّ ما، في غرفة نومه الخاصّة. كان الباب مقفلًا. عبر وفتح النافذة بهدوء، وكانت تطلّ على الفناء، فأتاح له ذلك أن يرى القاعة بصورة جزئية انطلاقا من الأبواب الزجاجية.

عندما فعل ذلك، وصلت إلى أذنيه همهمة وهمس لحركة كبيرة من الشوارع البعيدة، وصوت وقع الأقدام وأصوات بعيدة مكتومة. انحنى بحذر وأصخى سمعه. كان ضوء القمر صافيًا وقويًّا في هذه اللحظة ولكن نافذته كانت في الظلّ. كان ظلّ القرص الفضيّ خلف المنزل. فهم بصورة مؤكّدة أنّ سكّان البلدة، الذين كانوا قبل وقت قصير خلف الأبواب المغلقة ولا يراهم أحد، يخرجون الآن إلى الشارع وهم مشغولون بأمر ما غامض ودنس. لقد أصغى باهتمام.

في البداية كان كلّ شيء حوله صامتًا، لكنّه سرعان ما أصبح على علم بالتحرّكات التي تحدث في المنزل نفسه. لقد سمع أصواتَ حفيفٍ وزقزقات عبر ذلك الفناء الصامت المضاء بنور القمر. أرسلت مجموعة من الكائنات الحيّة همهمة نشاطها في الليل. كانت الأشياء في حالة حركة في كلّ مكان. انبعثت رائحة قوية نفّاذة في الهواء قادمة من حيث لم يعلم. أصبحت عيناه في الحال ملتصقتين بنوافذ الجدار المقابل، حيث سقط ضوء القمر في توهّج رائق. لقد انعكس السقف فوقه وخلفه بوضوح في ألواح الزجاج، ورأى الخطوط العريضة للأجسام الداكنة تتحرّك بخطى طويلة على البلاط وعلى طول الإفريز المائل. مرّت بسرعة وبصمت، وكانت تشبه قططًا ضخمة في موكب لا نهاية له عبر الزجاج المصوّر، ثم بدا أنّها تقفز للأسفل إلى مستوى أدنى حيث فقد رؤيتها. لقد استطاع فقط أن يسمع أصوات قفزاتها المكتومة. كانت ظلالها في بعض الأحيان تنعكس على الجدار الأبيض المقابل، ومن ثم فإنّه لم يستطع تحديد ما إن كانت هذه ظلال بشر أو قطط. لقد بدا أنّها تتغيّر بسرعة من واحد إلى آخر. بدا التحوّل حقيقيًّا بشكل مرعب لأنها قفزت مثل البشر، لكنّها تحوّلت سريعًا في الهواء بعد ذلك مباشرة وسقطت مثل الحيوانات.

كان الفناء أسفله مفعم بالحياة، بالحركات الزاحفة من قبل الأشكال الداكنة التي تنسل جميعها خلسة نحو الشرفة ذات الأبواب الزجاجية. لقد ظلت قريبة جدًّا من الجدار حتّى إنّه لم يتمكّن من تحديد شكلها الفعلي، لكن عندما رأى أنّها اجتازت إلى الحشد العظيم الذي تجمع في القاعة، أدرك أنّ هذه هي المخلوقات التي أطلقت ظلالها، والتي رآها أول مرة تنعكس على الألواح الزجاجية للنوافذ المقابلة. كانت قادمة من جميع أنحاء المدينة ووصلت إلى مكان الاجتماع المعين عبر الأسطح والبلاط، وكانت تثب من مستوى إلى مستوى حتى وصلت إلى الفناء.

بعد ذلك سمع صوتًا جديدًا على أذنيه، ورأى أن كل النوافذ حوله كانت تنفتح برفق، وظهر وجه عند كل نافذة. بعد لحظة بدأت هذه الأشكال تسقط بسرعة في الفناء. رأى أنّ هذه الأشكال كانت بشرية عندما أسقطت نفسها من النوافذ، لكن ما إن سقطت في الفناء بأمان، حتى سقطت على أطرافها الأربعة وتحوّلت في أسرع وقت ممكن إلى قطط ضخمة وصامتة. ركضت في صفوف للانضمام إلى الحشد الرئيس في القاعة.

وعلى كلّ ذلك، لم تكن غرف المنزل خالية وشاغرة.

إضافة إلى ذلك، فإن ما رآه لم يعد يملؤه بالدهشة، لأنه تذكّر كل شيء. لقد اعتاد كل ذلك. لقد حدث كل ذلك من قبل مئات المرات، وقد شارك هو بنفسه فيه، وعرف الجنون الوحشي لكل شيء. لقد تغيّرت المعالم الرئيسة للمبنى القديم وأصبح الفناء أكبر، وبدا أنه يحدّق فيه من ارتفاع أكبر بكثير عبر الأبخرة الدخانية. وبينما كان يتطلّع إليها، بحسب ما يذكر، هاجمته بشراسة الآلام القديمة منذ زمن طويل -العنيفة والعذبة- وتدفّقت الدماء بفظاعة عندما سمع نداء الرقص مجدّدًا في قلبه وتذوّق سحر أليس القديم وهي تدور بسرعة بجانبه.

تحرك للخلف فجأة عندما قفزت قطة رشيقة برفق من الظلال السفلية على حافّة النافذة قريبة من وجهه، وكانت تحدّق فيه بثبات بعيون إنسان. «تعال»... بدا أنها تقول. «تعال معنا إلى الرقص! تحول لما كنته قديمًا! غير من نفسك بسرعة وتعال!» لقد فهم جيدًا نداء المخلوقة التي لا صوت لها.

اختفت مرة أخرى في ومضة وكان صوت قدميها المبطّنة على الحجارة بالكاد يُسمع، ثم سقط آخرون بالعشرات على جانب المنزل بجوار عينيه. وتحوّلوا جميعًا عندما سقطوا

وتدفّقوا بسرعة وهدوء نحو نقطة التجمّع. شعر مرة أخرى برغبة مخيفة في أن يحذوَ حذوهم، ويهمهم بالتعويذة القديمة ثم يسقط على يديه وركبتيه ويركض سريعًا، كي يطير ويقفز قفزة عظيمة في الهواء. آه... كم تدفّقت هذه العاطفة بداخله كالفيضان وجعلت أحشاءه تتلوى! لقد جعل ذلك قلبه يتلظّى بالرغبة بقوة في الليل من أجل رقصة السحرة القديمة، في سبت الساحرات! كانت النجوم تدور حوله والتقى مرة أخرى بسحر القمر. قوة الرياح المندفعة الآتية من الهاوية والغابات بعيدًا، والتي تقفز من جرف إلى جرف عبر الوديان مزقته... سمع صرخات الراقصين وضحكاتهم الهمجية، ورقصهم المهتاج مع هذه الفتاة الهمجية حول العرش الخافت حيث جلست تلك المخلوقة بصولجان العظمة...

ثم فجأة، أصبحوا جميعًا صامتين وساكنين، وتلاشت الحمية قليلاً التي في قلبه. غمر ضوء القمر الهادئ الفناء الفارغ المهجور. لقد بدؤوا. انطلق الموكب في السماء وظلّ هو وحده.

مشى فيزين بهدوء على رؤوس أصابعه عبر الغرفة وفتح الباب. ازدادت الهمهمة الآتية من الشارع في أذنيه لحظة

فلحظة كلّما تقدم. شقّ طريقه بحذر شديد أسفل الممر. توقّف مؤقّتًا وأصخى بسمعه عند رأس الدرج. كانت القاعة، أسفله، التي تجمّعوا فيها مظلمة وساكنة، ولكن انطلاقا من الأبواب والنوافذ المفتوحة على الجانب الآخر من المبنى، ظهر صوت حشد كبير يتحرك لمسافة أبعد وأبعد.

شق طريقه هابطًا الدرج الخشبي الذي يصرّ، وكان مرتعبًا، ومع ذلك كان متشوقًا لمقابلة أحد الشاردين كي يدلّه على الطريق، ولكنّه لم يعثر على أحد، فعبر القاعة المظلمة التي امتلأت بالأشياء الحية المتحركة وخرج إلى الشارع انطلاقا من الأبواب الأمامية المفتوحة. لم يستطع أن يصدّق أنه قد نجا وتمّ نسيانه حقًّا وسُمح له بالهرب. لقد أربكه ذلك.

كان ينظر حوله بتوتّر، وينظر إلى الشارع هنا وهناك، وعندما لم ير شيئًا تقدّم إلى الرصيف ببطء. ولمّا مضى كان يبدو على المدينة كلها أنها فارغة ومهجورة، كما لو أنّ ريحًا عظيمة قد نسفت كلّ شيء حي فيها. ظلّت أبواب ونوافذ البيوت مفتوحة طوال الليل. لا شيء يتحرّك. غطّى ضوء القمر والصمت كلّ شيء. أحاط الليل به مثل عباءة. ربّت الهواء اللين البارد على وجنته كلمسة كفّ حيوان مكسوّ بالفراء. اكتسب ثقة بنفسه وبدأ

يمشي بسرعة، على أنّه كان لا يزال ملتزمًا بالجانب الظليل. لم يستطع أن يكتشف في أي مكان توجد أكثر العلامات خفوتًا لذلك الخروج العظيم الشرير الذي عرف أنه قد حدث. أبحر القمر عاليا في سماء صافية وهادئة.

لم يكد يدرك إلى أين كان ذاهبًا، حتى عبَرَ السوق المفتوح، ووصل إلى الأسوار حيث كان يعرف طريقًا ينحدر إلى الطريق السريع ويمكنه انطلاقا منه الهروب إلى إحدى المدن الصغيرة الأخرى التي تقع في الشمال، ومنها إلى السكك الحديدية.

لكنّه توقّف أولًا مؤقّتًا، وحدَّق حوله في المشهد عند قدميه حيث كان يرقد السهل الكبير مثل خريطة فضية لبلدة ما في عالم الخيال. انسل ذلك الجمال الساكن إلى قلبه، مما زاد من إحساسه بالذهول والخيال. لم يتحرك الهواء وسكنت أوراق أشجار السهل، وتم تحديد التفاصيل القريبة بحدة النهار مقابل الظلال الداكنة، وعلى مسافة، انصهرت الحقول والغابات في ضباب رقيق لامع.

لكن نفَسَه توقف في حلقه، ووقف بلا حراك، كما لو أن الشلل قد أصابه، عندما مرت نظرته على الأفق وسقطت على المنظر القريب الموجود في عمق الوادي عند قدميه. توهجت

منحدرات التل المنخفضة والتي كانت مختبئة من سطوع القمر، وقد رأى من خلال الوهج أشكالًا لا حصر لها تتحرك سريعًا بين فتحات الأشجار، بينما لاحظ فوق رأسه أشكالًا طائرة رفرفت بشكل غامض للحظة مقابل السماء مثل أوراق الشجر التي تحركها الريح، ثم استقرت وهي تصرخ وتغني غناء غريبًا خلال الفروع داخل المنطقة التي اشتعلت فيها النيران.

وقف مفتونًا وحدق مدّة لم يستطع تحديدها. وبعد ذلك، ونتيجة لتأثره بأحد الدوافع الرهيبة التي بدا أنها تتحكّم في المغامرة كلّها، تسلّق بسرعة قمّة الإفريز العريض وتوازن لحظة حيث انحدر الوادي عند قدميه. ولكن في تلك اللحظة بالذات، بينما كان واقفًا بتردّد، لفتت انتباهه حركة مفاجئة بين ظلال المنازل، وعندما التفت، رأى هيئة حيوان ضخم يثب بسرعة عبر الفضاء المفتوح خلفه، ويهبط بعد وثبته على الجزء العلوي لجدار أسفل سابقه. بعدها ركض على قدميه مثل الريح ثم انبثق بجانبه عند الأسوار. بدا أنّه يرتجف عبر ضوء القمر، وبدا منظره مرتعبًا للحظة. نبض قلب فيزين خوفًا. وقفت أليس بجانبه، وهو يحدّق في وجهها.

رأى أنّ هناك مادةً قاتمة تلطخ وجه الفتاة وجلدها وتلمع

في ضوء القمر وهي تمدّ يديها نحوه. كانت ترتدي ملابس رثة بالية التي أصبحت مصدر قوة لها. وكانت أوراق السذاب ورعي الحمام حول صدغيها. تلألأت عيناها بالنور الشرير. استطاع أن يسيطر على الحافز الوحشي كي يأخذها بين ذراعيه ويقفز معها من موقعهما الخطير إلى الوادي الموجود بالأسفل.

صاحت وهي تشير بذراعها الذي رفرفت عليه الأسمال البالية من الرياح المتزايدة تجاه الغابة على بعد: «انظر!... انظر أين ينتظروننا! لا تزال الغابات على قيد الحياة! حقًا إنّ العظماء موجودون هناك وسيبدأ الرقص في الحال! إنّ المرهم هنا! ادهن نفسك وتعال!».

على أنّ السماء كانت صافية قبل قليل، لا غيم فيها، إلا أنّ القمر أصبح أثناء حديثها مظلمًا، وبدأت الريح تهبُّ بقوة على قمم أشجار السهل بالقرب منه. لقد جلبت العواصف الشاردة أصوات الغناء الأجش والصيحات من منحدرات التلّ الأكثر انخفاضًا، وانتشرت حوله في الهواء الرائحة النفّاذة التي كان قد لاحظها بالفعل حول فناء النزل.

صاحت مرة أخرى: «تحوَّل، تحوَّل!»... كان صوتها يتصاعد مثل أغنية. «ادعك جلدك جيدًا قبل أن تطير. تعال!

تعال معي إلى السبت، إلى بهجته الشديدة، إلى الخلاعة اللذيذة في عبادته اللعينة! أنظر! العظماء حاضرون وقد أُعدت الأسرار المقدسة. العرش مشغول. ادهن نفسك وتعال! ادهن نفسك وتعال!».

ازداد طولها حتى أصبحت كشجرة بجانبه، وقفزت على الحائط بعيون ملتهبة وشعر متناثر في الليل. بدأ يتحول هو أيضا بسرعة. لمست يداها جلد وجهه وعنقه، ورسمت عليه خطوطًا بالمرهم المُحرق الذي أطلق السحر القديم في دمه بالقوة التي تلاشى أمامها كل ما هو طيب.

ترامى إلى أذنيه صوت زئير من قلب الغابة، وعندما سمعت الفتاة ذلك، قفزت على الحائط في جنون فرحتها الشريرة.

صرخت: «الشيطان هناك!» وهرعت إليه ساعية أن تسحبه معها إلى حافة الجدار. «لقد جاء الشيطان. الأسرار المقدسة تنادينا! تعال مع نفسك العزيزة المارقة، وسوف نتعبد ونرقص حتى يموت القمر ويُنسى العالم!».

كافح فيزين لتحرير نفسه من قبضتها، وذلك لإنقاذ نفسه فقط من الوثبة المخيفة، في حين كانت عاطفته تمزقه وقد سيطر كل شيء عليه. صرخ بصوت عالٍ، دون أن يعرف ما

قاله ثم صرخ مرة أخرى. إنها تلك الدوافع والعادات المروعة القديمة وقد وجدت متنفسًا لها بشكل غريزي، فعلى أنه قد بدا له أن صراخه بلا طائل، فإن الكلمات التي قالها كانت في الواقع تحمل معنى وكانت واضحة. لقد كانت تلك الدعوة القديمة، وسُمعت بالأسفل وقد لُبيَّت.

صفَّرت الريح عند ذيول معطفه عندما اكفهر الهواء المحيط به من جراء الكثير من الأشكال الطائرة التي كانت تشق طريقها إلى أعلى خارج الوادي. لقد ابتليت أذناه بصراخ الأصوات الأجش عندما اقتربت منه. لقد صدمته ضربات الريح، والتي كانت تدفعه بخطورة إلى هذا وذلك الطريق على طول الجزء العلوي من الجدار الحجري، وقد أمسكت به أليس بذراعيها الطويلين اللامعين، الناعمين العاريين. أحاطت بعنقه سريعًا، لكنها لم تكن وحدها، فقد أحاط به عشرات منهم وانطلقوا في الهواء. تسببت الرائحة النفاذة للأجسام المدهونة بالمرهم في خنقه، وأثارت إعجابه بالجنون القديم ليوم السبت ورقصة السحرة والساحرات الذين يكرمون الشرّ المتجسّد في العالم.

صاحوا في جوقة وحشية حوله: «ادهن نفسك وطِر! ادهن نفسك وطر! إلى الرقص الذي لا ينتهي أبداً! إلى نزوة الشر

المخيفة العذبة... إلى الشرّ!».

كان سيخضع وينتهي بعد مرور لحظة أخرى لأن إرادته أصبحت لينة وقد طغى عليه طوفان من الذاكرة الانفعالية، لكن حدث أن شيئًا صغيرًا قد غيَّر من مجرى المغامرة كلها؛ وضع قدمه على حجر رخو على حافة الجدار، فسقط في المنحدر أسفله محدثًا صوت تصادم مفاجئ. لقد سقط تجاه المنازل، في الفضاء المفتوح الممتلئ بالأحجار والحصى، ولحُسن الحظّ لم يكن في عمق الوادي في الجانب الأبعد.

أتوا مهرولين نحوه، متكدّسين مثل الذباب المتجمع على قطعة من الطعام، ولكنهم شعروا أنه تحرّر من قوة لمستهم لحظة قصيرة. برق في ذهنه الحدس المفاجئ الذي أنقذه. قبل أن يتمكّن من استعادة قوة قدميه، رآهم يخربشون على الحائط على نحو أخرق، وكأنّهم الخفافيش التي لا تستطيع الطيران إلا بالسقوط من على ارتفاع، ولم يكن بإمكانهم الاستحواذ عليه في العراء. ثم بعد أن رآهم يجثمون هناك في صفّ مثل القطط على السطح -وكانوا جميعًا قاتمين بلا شكلٍ محدّد، وكانت عيونهم مثل المصابيح- عادت به الذاكرة المفاجئة لرعب أليس عندما ترى النار.

ثم بسرعة كالومضة، وجد أعواد ثقابه وأشعل أوراق الشجر الميتة التي تحت الجدار.

ولأنّ تلك الأوراق كانت قد جفّت وذبلت، اشتعلت فيها النار في الحال وحملت الريح اللهب في خطّ طويل متجهٍ إلى أسفل الجدار. ومع الصراخ والعويل، اختفت تلك الأشكال في الهواء على الجانب الآخر، وتبدّدت مع اندفاع كبير ودويّ من أجسادها لأسفل في قلب الوادي المسكون، تاركةً فيزين لاهثًا، مترنّحًا في وسط الأرض المهجورة.

نادى بضعف: «أليس... أليس!»، لأن قلبَه كان يتوهّج ظانًا أنّها كانت قد ذهبت حقًّا للرقص العظيم دونه، وأنّه فقد فرصة فرحته المخيفة. ومع ذلك، في الوقت نفسه، كان ارتياحه كبيرًا للغاية وكان يشعر بالدهشة والانزعاج حيال الأمر برمّته، حتّى إنّه بالكاد كان يعرف ما يقوله، فصرخ بصوت عالٍ فقط قبالة اهتياج مشاعره العنيفة...

سارت النار تحت الجدار في مسارها، ومرة أخرى لاح ضوء القمر من خسوفه المؤقّت ناعمًا وصافيًا. وبنظرة أخيرة مرتعدة على الأسوار المهدّمة، وشعور بالدهشة المريعة من الوادي المسكون، حيث لا تزال الأشكال تتزاحم وتطير، حوَّل

وجهه نحو المدينة وشقّ طريقه ببطء في اتجاه الفندق.

عندما مضى، كانت تتبعه صرخات كثيرة وصوت عواء من الغابة المتلألئة أدناه، التي أصبحت خافتة بدرجة كبيرة مع هبوب الريح عندما اختفى بين المنازل.



6

قال آرثر فيزين، وهو يحدّق بعيون متردّدة ووجه متورّد في د.سايلنس الذي كان جالسًا ومعه دفتر ملاحظاته: «قد يبدو الأمر مفاجئًا بالنسبة لك، بخصوص تلك النهاية غير الممتعة. ولكن الحقيقة هي أن... منذ تلك اللحظة يبدو أنّ ذاكرتي قد ضعفت إلى حدٍّ ما. ليس لدي أيّ تذكّر واضح لكيفية وصولي إلى الوطن أو ماذا فعلت بالضبط.

يبدو أنّني لم أعد قطّ إلى النزل. أتذكّر على نحو ضعيف أنّني سرت منحدرًا على طريق أبيضَ طويلٍ في ضوء القمر، وكانت لا تزال بجوار الغابات والقرى الساكنة، المهجورة، ثم بزغ الفجر ورأيت أبراج بلدة كبيرة بعض الشيء، وهكذا وصلت إلى المحطّة.

لكن قبل ذلك بمدة طويلة، أتذكّر أنّني توقّفت في مكان ما على الطريق ونظرت خلفي حيث كانت بلدة التلّ التي وقعت فيها مغامرتي، واقفة في ضوء القمر، وتأمّلت كم كانت تشبه تمامًا قطة كبيرة متوحشة تركض في السهل ومخالبها الأمامية الضخمة تستلقي في الشارعين الرئيسين، ولاحت أبراج

الكاتدرائية المتشابهة المحطمة كآذان ممزّقة لها في قلب السماء. ما زالت هذه الصورة عالقة في ذهني بشدّة حتّى يومنا هذا.

لا يزال هناك شيءٌ آخرُ في ذهني يخصُّ تلك النجاة، ألا وهو أنّني أتذكّر دائمًا أنّني لم أدفع الثمن، والقرار الذي اتخذته، وأنا واقف هناك على الطريق السريع المترب، الذي مفاده أنّ الأمتعة الصغيرة التي تركتها ستكون بمثابة أكثر من مجرّد تسوية لمديونيّتي.

بالنسبة لبقية القصّة، فما يمكنني أن أخبرك به هو أنّني تناولت فنجانًا من القهوة وخبزًا في مقهى على مشارف هذه المدينة التي وصلت إليها، وفي الحال، وجدت طريقي إلى المحطّة وأقلّني قطارٌ في وقت لاحق من اليوم. وصلت إلى لندن في مساء اليوم نفسه».

سأله جون سايلنس بهدوء: «ما المدة الكلية التي تظن أنّك بقيت فيها في بلدة المغامرة؟».

نظر فيزين للأعلى مرتبكًا.

ثم استأنف حديثه، وقد قام بحركة تشي بالاعتذار: «كنت

سأتحدث عن هذا. في لندن وجدت أنّني قضيت أسبوعًا كاملًا هناك بحسب تقديري للوقت. لقد مكثت في المدينة لأكثر من أسبوع، وكان من المفترض أن يكون هذا يوم 15 سبتمبر! بدلًا من العاشر من سبتمبر.

استفسر الطبيب: «وهكذا، هل يعني ذلك أنّك في واقع الأمر لم تمكث سوى ليلة أو ليلتين في النُزُل؟».

تردّد فيزين قبل الردّ. مشى على السجادة متثاقلًا.

قال أخيرًا: «لا بدَّ وأنّني قضيت وقتًا في مكان ما. في مكان ما أو بطريقة ما. بالتأكيد كان لديّ أسبوع في حسابي. لا أستطيع أن أشرح ذلك. لا يمكنني إلا أن أكشف لك عن الحقائق».

«وهذا ما حدث لك في العام الماضي، عندما لم تعد مطلقًا إلى المكان؟».

تلعثم فيزين: «نعم... في الخريف الماضي، ولم أجرؤ قطّ على العودة. أظن أنّني لا أريد ذلك أبدًا».

سأله د.سايلنس في آخر المطاف، عندما رأى أنّ الرجل الضئيل قد وصل إلى نهاية كلماته بكلّ وضوح ولم يكن لديه ما يقوله: «أخبرني؛ هل سبق لك أن قرأت عن موضوع

ممارسات السحر القديمة أثناء العصور الوسطى أو كنت مهتمًّا بالموضوع عامّة؟».

صرح فيزين مؤكّدًا: «أبدًا! لم أفكّر مطلقًا في مثل هذه الأمور على حدّ علمي».

«أو ربّما فكّرت في مسألة تناسخ الأرواح؟».

أجاب بوضوح: «لم يحدث ذلك أبدًا قبل مغامرتي، ولكن بعدها...».

ومع ذلك كان هناك شيء ما لايزال في ذهن الرجل يود أن يريح نفسه منه بالاعتراف به، لكنه لم يستطع إلا التلميح له، وكان ذلك فقط بعد أن أمدته لباقة الطبيب اللطيفة بالعديد من الفرص والتي اغتنم إحداها، وقد تردّد في رغبته في أن يريه العلامات التي لم يزل يحملها على عنقه، حيث لمسته الفتاة بيديها المدهونة.

رفع ياقته بعد كثير من التردد، وأخفض قميصه قليلاً ليريها للطبيب. كان هناك، على سطح الجلد، خط ضارب إلى الحمرة عبر الكتف يمتد قليلا إلى أسفل الظهر باتجاه العمود الفقري. من المؤكد أن ذلك الخط أشار بالضبط إلى الوضع

الذي ربما اتخذه الذراع عند العناق. وعلى الجانب الآخر من الرقبة، أعلى قليلا، كانت هناك علامة مشابهة، وإن لم تكن محددة بوضوح.

همس، وكان هناك بريق غريب في عينيه يظهر ويختفي: «حدث هذا في المكان الذي امسكتني فيه على الأسوار تلك الليلة».

*

بعد مرور بضعة أسابيع، عندما وجدتُ الفرصة سانحة مرة أخرى بأن أتباحث مع جون سايلنس بشأن حالة أخرى غير عادية أصبحت تحت ملاحظتي، تناقشنا مرة أخرى بخصوص قصّة فيزين. فمنذ سماع القصّة، أجرى الطبيب تحقيقات على حسابه الخاصّ، واكتشف أحد معاونيه أنّ أسلاف فيزين عاشوا بالفعل لأجيال في المدينة نفسها التي حدثت فيها المغامرة معه. وقد حوكم اثنان منهم؛ سيّدتان، وأُدينتا بممارسة السحر، وتمّ إحراقهما أحياء على الخازوق. إضافة إلى هذا، لم يكن من الصعب إثبات أن النزل الذي أقام فيه فيزين تمّ بناؤه في حوالي عام 1700 على المكان الذي حدثت فيه محرقة الجثث ونُفذت عمليّات الإعدام. كانت المدينة نوعًا من المقرّات

الرئيسة لجميع السحرة والساحرات في المنطقة بأسرها، وبعد إدانتهم تمّ إحراقهم هناك بالعشرات.

تابع الطبيب كلامه: «يبدو غريبًا أن يكون فيزين قد ظلّ جاهلًا بكلّ هذا، ولكن من ناحية أخرى، لم يكن هذا من نوعية التاريخ الذي كانت الأجيال المتعاقبة حريصة على إبقائه حيًّا، أو ترديده على مسمع من أطفالهم، لذلك فأنا أميل إلى الظن بأنّه لا يعرف شيئًا عن ذلك حتّى الآن.

يبدو أنّ المغامرة كلّها كانت إحياءً لذكريات حياة سابقة، ناجمة عن التواصل المباشر مع القوى الحيّة التي لازالت قوية بما يكفي كي تجول في المكان، وبفرصة أكثر تفرّدًا أيضًا، مع الأشخاص الذين شاركوا في أحداث تلك الحياة بالذات. فبالنسبة للأمّ وابنتها اللتين أثّرتا فيه بشكل غريب، لا بدَّ وأنّهما كانتا ممثلتين بارزتين، معه هو نفسه، في مشاهد وممارسات السحر التي سادت على خيال البلد كلّها في تلك المدّة.

على المرء أن يقرأ فقط تاريخ العصور ليعرف أنّ تلك الساحرات زعمن أنّ لديهنّ القوة لتحويل أنفسهنّ إلى حيوانات مختلفة، لأغراض التنكّر، وأيضًا لكي ينقلن أنفسهنّ بسرعة إلى مشاهد العربدة الوهمية بهن. لقد كان الاعتقاد

السائد في كلّ مكان أنهنّ لديهنّ القدرة على تغيير أنفسهنّ إلى ذئاب، والقدرة على تحويل أنفسهم إلى قطط عن طريق دهن أجسادهنّ بمرهم خاصّ أو مرهم يقدّمه الشيطان نفسه. وقد زخرت تجارب السحر بالكثير من الأدلة على مثل هذه المعتقدات العالمية.

لقد حصل د.سايلنس على معلومات وافية من كثير من الكتاب حول هذا الموضوع، وأظهر كيف أنّ كل تفاصيل مغامرة فيزين كان لها أساس في ممارسات تلك الأيام المظلمة.

لكن ليس لدي أدنى شكّ في أنّ هذه المسألة قد حدثت برمّتها بشكل شخصيّ في وعي الرجل». وتابع، ردًّا على أسئلتي: «لأنّ مساعدي الذي ذهب إلى المدينة لتحرّي الأمر، اكتشف توقيعه في دفتر الزوّار وأثبت بذلك أنّه وصل في الثامن من سبتمبر، وغادر فجأة دون دفع فاتورته. غادر بعد يومين، ولم تزل حقيبته البنية القذرة وبعض الملابس السياحية في حوزتهم. دفعت بعض الفرنكات لتسوية ديونه، وأرسلت إليه أمتعته. كانت الابنة غائبة عن المنزل ولكنّ المالكة؛ وهي امرأة كبيرة الحجم للغاية كما وصفها، أخبرت مساعدي أنّه كان يبدو رجلًا مهذّبًا غريبًا جدًّا شاردَ الذهن، وبعد اختفائه ظلّت تخشى

مدّة طويلة من انتهاء الأمر بصورة عنيفة في الغابة المجاورة التي اعتاد التجوّل فيها وحده.

أودُّ الحصول على مقابلة شخصية مع الابنة حتّى أتحقّق من مقدار مدى موضوعية ما حدث فعليًّا معها، كما قال فيزين. لأنّ خوفَها من النار ومشهد الحروق، لا بدَّ وأنه كان بالطبع صورة لذاكرتها البديهية لموتها المؤلم السابق على الخازوق، ولا بدَّ وأنّه أوضح لماذا تخيّل أكثر من مرة أنّه رآها من بين الدخان واللهب».

تساءلت: «وماذا عن تلك العلامة التي على جلده، على سبيل المثال؟».

أجاب «إنها مجرّد علامات ناتجة عن العناق الهيستيري، مثل وصمة الصلب والكدمات التي تظهر على أجساد الأشخاص المنوّمين مغناطيسيًّا الذين قيل لهم أن يتوقعوها. وهذا أمرٌ شائعٌ للغاية ويمكن شرحه بسهولة. يبدو من الغريب أن تظلّ هذه العلامات طويلًا في حالة فيزين. عادةً ما تختفي بسرعة».

تجرّأت على القول: «من الواضح أنّه ما زال يفكّر في الأمر كلّه. يعانقن ويعيش كلّ شيء من جديد».

«على الأرجح هذا صحيح ممّا يجعلني أخشى أنّ نهاية مشكلته لم تأتِ بعدُ. سوف نسمع عنه مرة أخرى. إنّها حالة مؤسفة! لا يمكنني فعل الكثير للتخفيف منها». تحدّث د.سايلنس بصوت أجش، يشوبه الحزن.

أضفت متسائلًا: «وما رأيك في الرجل الفرنسي الذي كان موجودًا في القطار؟ الرجل الذي حذّره من المكان قائلًا: «بسبب النوم وبسبب القطط»... بالتأكيد إنّه حدث متفرّد للغاية أليس كذلك؟».

أجاب ببطء: «حدث متفرّد للغاية ولا يمكنني تفسيرُه إلا على أساس أنّه مصادفة غير محتملة للغاية».

«ماذا تعني؟».

«أن الرجل نفسه قد أقام في المدينة وخضع لتجربة مماثلة. أود أن أعثر على هذا الرجل وأسأله. لكنّ التكهّن هنا في مثل حالتنا عديم الفائدة، لأنّني ليس لدي مفتاح لحلّ اللغز كي أستمرَّ، وكلّ ما يمكنني فعله أن أستنتج أنّ هناك صلةً ما روحية فريدة؛ قوة ما لا تزال نشطة في نفسه من الحياة السابقة نفسها، التي جذبته لشخصية فيزين ومكّنته من أن يخشى شيئًا ما من الممكن أن يحدث له، وهكذا حذره كما فعل».

استمرّ في حديثه وكأنّه يحدّث نفسه: «نعم... أشكّ أنّ فيزين في هذه الحالة قد اكتسحته القوى الناتجة عن نشاطات شديدة لحياة ماضية، وأنّه عايش في خياله مرة أخرى مشهدًا لعب فيه دورًا بارزًا منذ قرون مضت. لقد وُجِدت الأفعال القوية في وجود قوى بطيئة جدًّا حتّى إنّها لا تفنى، ويمكن القول بأنّها لا تموت أبدًا. لم تكن في هذه الحالة نشطة بدرجة تكفي أن تجعل خداع البصر أو الحواسّ كاملًا، ولذلك وجد الرجل الضئيل نفسه في حالة من الحَيرة المحزنة بين الحاضر والماضي، ومع ذلك كان لديه شعورٌ قويٌّ جعله يدرك أن ذلك كان حقيقيًّا، وأنه يقاوم فكرة العودة إلى حالة من التطوّر سالفة وأكثر انحطاطًا حتّى لو في الذاكرة».

استمرّ في حديثه وهو يعبر أرضية الحجرة محدّقًا في السماء المظلمة، وعلى ما يبدو أنّه قد تغافل عن وجودي: «آه... نعم... من الممكن أن يكون تدفّق الذاكرة نصف الواعي بهذا الشكل مؤلمًا جدًّا وأحيانًا يكون خطيرًا إلى حدّ بعيد. ما أثق فيه فقط هو أنّ تلك الروح الطيّبة ربّما تهرب في الحال من الماضي العنيف العاصف. لكنّني أشكّ في هذا... أشكّ».

كان صوته ساكنًا يشوبه الحزنُ عندما كان يتحدّث، وعندما

عاد إلى غرفته مرة أخرى ارتسم على وجهه تعبير عميق يشي بالحنين؛ حنين الروح التي تكون رغبتها في المساعدة أكبر أحيانًا من قدرته.



الجيرنون بلاكـوود

الدكتور جون سايلنس، أو كما يطلق عليه بعضهم "الطبيب الفذّ" الذي يحظى باحترام وتقدير واسع؛ لما يقوم به على صعيد التطبيب والتحقيق. فهو يعد أشهر محقّقي ومفسّري ومعالجي الحالات الصعبة وغير المألوفة، الخارجة عما هو معروف وذات الطبيعة الغامضة.

عندما نشر آلجيرنون بلاكوود المجموعة القصصية أول مرة في كتاب "ثلاث قصص لجون سايلنس" سرعان ما اشتهر بوصفه "سيد الحكايات الغامضة"، ثم أطلق النقّاد عليه اسم: "شارلوك هولمز عالم الماورائيات والخوارق".

لم يكن جون سايلنس مجرّد طبيب يهوى التحقيق في الأمور الشاذة للعادة في أوقات فراغه، بل كان صوفيًا مستبصرًا بارعًا في الفنون الباطنية، وأستاذًا في العلوم الغامضة، يسعى بشغف العالم لحل هذه المشكلات وفهم كينونتها.

